# نظـرية المذخـورية

## أو الفكر المستقبلي عند المسلمين

الناشر

رئيس مجلس الإدارة
**أسامة إبراهيم**

المدير التنفيذي
**سماح الجمال**

المدير الفني
**أحمد جابر**

تصميم الغلاف
**مصطفى الدناصورى**

**دار النخبـة**
**للطباعة والنشر والتوزيع**

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول- مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥ - ٠٠٢
E-mail: alnokhoba@gmail.com

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2016 /26690

**ISBN**: 978 - 977 - 6580 - 25 - 1

الأستاذ الدكتور

محمد أبو زيد الفقي

# نظرية المذخورية

# أو

# الفكر المستقبلي عند المسلمين

الطبعة الثانية

٢٠١٧

# إهداء

إلى كل من يبصر النور في ثنايا الظلام، ويعمل ليكون غد المسلمين خاليا من الأحزان؛ ليسودوا ويقودوا ..

فهم خير الأنام..

أهدي هذا الكتاب..

الأستاذ الدكتور

**محمد أبو زيد الفقي**

# مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الهادي الأمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، وعلى من نهج نهجهم وسار على دربهم إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فلعل أول ما يلفت نظر القارئ العربي هو عنوان هذا الكتاب «نظرية المذخورية» أو الفكر المستقبلي عند المسلمين، وهي مشتقة من الذخر أي ادخار الشيء إلى المستقبل.

ولعلها – لهذا المعنى– توازي كلمة «الاستراتيجية» عند الغرب، وإن لم توازِهَا أو تؤدي معناها، فليكن لنا كمسلمين منهاج خاص يعالج قضايا ومستقبل المسلمين، لأن المكتبة الإسلامية والعربية تحتاج إلى إضافات هذا النوع المفيد بعد أن أضحت حُبلى بآلاف الكتب التي تجعل من الحديث عن المستقبل شيئًا مكروها ومناقضا للإيمان عند فريق، ومجافيا للتعليم عند فريق آخر.

والذي ينظر في أحوال أمتنا الإسلامية وفي ثقافتها، لعله يُفَاجَأُ بأنها أمة لا تعمل للمستقبل بمعناه الحقيقي، وليس في ثقافتها شيء يساعدها على ذلك، وأدى ذلك مع تراكم الأحداث إلى أن تفقد الأمة الإسلامية صدارتها وريادتها، وإن لم تنتبه لذلك فسوف تفقد هويتها في يوم من الأيام.

وعندما ينتشر فكر «المذخورية» بين المسلمين، لا أخالني مغاليًا إن قلت إن هذه الأمة ستبصر فجرها الصادق، وستعود إلى مجدها التليد، لأنها ستعود إلى منهاج طبقته في يوم من الأيام فسعدت به، وأسعدت معها أممًا كثيرة.

وقد ضَمّنْت هذا الكتاب دراسة عن الفكر المُستقبلي عند المسلمين، وسوف يجد القارئ فيه أفكارًا ربما لم يألفها ولم يتعرف عليها قبل ذلك، رغم أنها من صميم المشروع الإسلامي الكبير.

وقد اشتمل هذا الكتاب على ثلاثة فصول: الأول عن المستقبلية في القرآن الكريم، والثاني عن المستقبلية في السنة الشريفة، والثالث عن المستقبلية عند صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن كنت أشعر بعظيم الحمد والشكر للحق سبحانه وتعالى، إلا أني أبصر تقصيري، ولا أدعي أنني وصلت إلى نهاية البحث في نظرية المذخورية، ولكن يسعدني أنني أشرت إلى الطريق...

أستاذ دكتور

**محمد أبو زيد الفقي**

# تمهيد

يتطور العالم المعاصر بسرعة كبيرة، وتتقدم بلاد كانت إلى عهد قريب ضمن الدول المتخلفة، ولا يدخل الدين كعامل حاسم في هذا التقدم، ويقف أصحاب العقيدة الصحيحة في حيرة:

تُرَى ما الذي جعلهم يتخلفون ويتقدم غيرهم؟ وهم حملة لواء الدين الوحيد الصحيح في العالم وأصحاب الرسالة الخاتمة، وأحيانا يعودون إلى دينهم فيُجَوّدون في أداء شعائره، ومع ذلك يبقون في مرحلة الانتظار ولا يشاركون في دفع الحضارة الإنسانية إلى الأمام، وأحيانا يعتذرون عن عجزهم هذا بأنهم من أهل الآخرة، وأن الدنيا ملعونة وغرورة، وأن الفقر شعار الصالحين. ولكنهم وهم يرزحون تحت وطأة الفقر والعجز لا يستطيعون صبرا على هذه الأطروحات، ومن ثم يعودون إلى موقف التساؤل من جديد: ؛

ما الذي ينقصنا لكي نتقدم مثل غيرنا؟

ولحل هذه الإشكالية في ذهن المسلم المعاصر لا بد أن نعود إلى الهدف من خلق الإنسان عموما، فإذا ما وصلنا إلى الهدف من ذلك الخلق علمنا أنه الخلافة؛ أي خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض لقوله تعالى: ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية [1]، ولعل أكبر هدف لهذه الخلافة هو استعمار الأرض: طالما أنها خلافة في الأرض، وقد حسم هذه الفرضية قوله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ الآية [2].

وعلى هذا فتكون مهمة تطور الحياة وإثراء الحضارة الإنسانية واقعة على عاتق

---

١) من سورة البقرة: من الآية ٣٠.

١) من سورة هود: من الآية رقم ٣٠.

الإنسان أولا وأخيرا، وهذا ما يُستفاد من مصادر الإسلام الصحيحة بعيدا عن فهم الناس لهذه المصادر، وهذا الهدف وهو استعمار الأرض وتنفيذ مشروع الله تعالى فيها، يسلمنا إلى الهدف الأكبر وهو رضا الله سبحانه وتعالى عن الإنسان بعد أن ينجح في مهمته التي استخلفه الله تعالى فيها، ورضا الله سبحانه وتعالى عن الإنسان يعني أنه نفذ مراد الله تعالى في الأرض، أما فهم كثير من المسلمين بأن الهدف من خلق الإنسان هو العبادة لقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية [١].

فهو فهم سليم في معناه العام، ولكن الخطأ يقع من المسلم في فهم «العبادة» في الآية الكريمة، ففي حين يظن أنها تُؤَدَّى بالقيام بالشعائر الدينية، والإكثار من ذكر الله تعالى تلفظا، وحفظ القرآن الكريم، إلا أنه بذلك يؤدي جانبا منها فقط، ولم يتجاوز الإطار الخارجي للعبادة الحقة وهو تنفيذ الخلافة، والدين هو الإطار السليم.

والصراط المستقيم الذي يوجه الجهد البشري نحو الحق والعدل والخير، ومن غيره يؤدي الجهد البشري إلى فناء الحياة ولا يؤدي إلى تقدمها وازدهارها، ومن هنا تأتي أهمية الدور الذي يلعبه الدين الصحيح في تقدم الحياة، والوصول بمهمة الإنسان في الأرض إلى غايتها. ولو كانت العبادة هي أداء الشعائر من صوم وصلاة وحج وزكاة أو التسبيح والتحميد [٢] والتكبير فقط، لدخلت الملائكة عليهم السلام في هذه الآية، لأنهم لا يفْتُرون عن ذكر الله تعالى، ولا يفْتَرون عليه، ولكن العبادة في الآية بمعنى العبادة والعمل، عبادة الله تعالى لأداء حق

١) من سورة الذاريات: الآية رقم ٥٦.
٢) لا تظن أني أُهَوِّنُ من شأن العبادة والذكر لأنهما القوة الدافعة لكل جسد في الحياة، ولكن التفرغ لهما، ترك للحياة وهو ما تدور حوله المناقشة.

العظمة والقهر، والعمل في الأرض لتنفيذ مشروع الله تعالى في أرض الله تعالى، وهذان الهدفان لصالح الإنسان، والله غني عن العالمين.

ويحرص الحق سبحانه وتعالى على العمل الدنيوي «عمل الخلافة» حرصا لو فقهه المسلمون لسادوا العالم أجمع، وعمموا قيادة الخير في كل مكان، فهو سبحانه يطلب من كل مؤمن إذا سمع النداء أن يأتي لصلاة الجمعة، فإذا قُضِيَت الصلاة يأمره بالانتشار في الأرض لتحصيل المنافع وتحقيق الخلافة، وإذا سافر المؤمن لقضاء حاجة دنيوية تتعلق بمهمته في الأرض أذن له الحق تعالى في قصر الصلاة وفي الفطر في نهار رمضان طالما أنه تجاوز مسافة القصر، وكل هذه الأمور توضح مهمة الإنسان في الأرض، وأنه للاستعمار والتطوير ودفع عجلة الحياة.[١]

وكما يُسأل المسلم الفرد عن تحقيق الخلافة من زاويته الشخصية، فكذلك تُسأل الأمة عن تحقيق الخلافة بمجموع أفرادها، أي أن العبد سيُسأل عن مجده في الدنيا ومجد الإسلام في آن واحد، ولذلك تنقسم مجهودات الأفراد في تطوير الحياة إلى بعضها وتشكل مجهود الأمة العام.

ومن هنا يتضح لنا، أن الذي يعمل للعبادة فقط يؤدي جانبا واحدا من حق الله تعالى، وأن الذي يعمل للدنيا فقط يؤدي جانبا واحدا من حق الله تعالى أيضا، وليس لأحدهما فضل على الآخر، لأنهما في التقصير سواء، والمؤمن المقبول هو الذي يريد في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، أي يريد أن يتفوق في العملين معا، وأن يصل إلى الاقتراب من التجويد والكمال فيهما.

---

١) وليس معنى ذلك التقليل من شأن العبادة لأنه لا يُقْبَل العمل الدنيوي إلا بقبولها أولا، فنجاح الإنسان في دينه ودنياه يوصله إلى غايته، وفشله في أي منهما يجعله بعيدًا من القبول.

ومن يتصفح مؤلفات بعض العلماء وخاصة الذين كتبوا في فترات الجزر والتراجع للحضارة الإسلامية، سيجد عند هؤلاء العلماء دعوة للتجافي عن الدنيا والقعود عن العمل، ولا شك أن هذا من إفراز الهزائم المتكررة على الأمة الإسلامية، ومع ذلك فما زال المصدران الصحيحان موجودين بين أيدينا ينطقان برؤية الإسلام الصحيحة للخلافة والحياة، وللدنيا والآخرة.

وإذا ترسخت فكرة الخلافة في أذهاننا، فإنها تستلزم النظر إلى خلافة الإنسان ككل وليس الإنسان الفرد، وهذا بالتالي يقودنا إلى أن مهمة الإنسان ـ أي إنسان ـ لا بد أن تكون هادفة، أي أنه يسعى إلى هدف معين يترسم في الوصول إليه خطوات معينة. وهذه الخطوات لا بد أن تكون محسوبة مدروسة، حُبلى بالأسئلة، ومحملة بالإجابات عليها. هذا من ناحية الإنسان كإنسان، وأما من ناحية المسلم فقد وضح الله تعالى له هدفه، وتركه يخطط للوصول إليه، فهدف المسلم: «أن تكون كلمة الله هي العليا»، ولا يمكن أن تكون كلمة الله هي العليا لمجرد نطقها، بل لا يتأتى ذلك إلا بتفوق المسلم وعلوه على غيره من العالمين، وللوصول إلى هذا الهدف الكبير لا بد من المرور بكثير من الأهداف التي تأخذ الكثير من جهد وعرق، وعِلم وعَمل المؤمن ولا يتحقق كل ذلك بالأماني والأحلام، وأساطير البطولة التي برع في نسجها المسلمون، بعد أن انتقلت الراية من الأيدي المؤمنة العاجزة إلى الأيدي الفاجرة القادرة.

ومعرفة الهدف والتخطيط له، هما هدفا هذه الدراسة، وطالما أننا حددنا الهدف أن تكون «كلمة الله هي العليا» فإن هذا الهدف لا يتم إلا بتطبيق الخلافة في الأرض والتفوق في الدنيا، ولعل في هذا إجابة على التساؤل الذي تصدر هذا التمهيد وهو: لماذا يتقدم الغير ويتخلف المسلمون؟

وذلك لأن الغير يقوم بواجب الخلافة من الناحية العملية ولذلك يتقدم، ولكن المسلمون يتخلفون لأنهم ظنوها خلافة عبادة، وليست عبادة تطوير للحياة وتنفيذ مشروع الله تعالى فيها.

وعند البحث في تفوق الغير وُجِدَ أنهم يتمسكون بالعمل الدنيوي ويخططون له، وتطورت هذه المسألة عندهم تطورا عظيما حتى أصبح لها علم مستقل يُسمى علم «الاستراتيجية» ونقلوا هذه الفكرة أو هذا العلم من المجال العسكري وعموه على كل المجالات، وساد هذا الفكر في البلاد المتقدمة صناعيا وزراعيا حتى كاد أن يصبح منهجا فرديا يعم حياة الأفراد.

ولا أدعي أنني سأشرح علم الاستراتيجية بكل أبعاده، فإن ذلك يحتاج إلى تخصص دقيق وليس هذا البحث مجاله، ولكن البحث سيدور حول فكرة: هل في النظام الإسلامي مستقبلية أو تخطيط للمستقبل وبالذات في المجال الدنيوي؟

وقد سميت هذا البحث بالمذخورية لترادف كلمة «الاستراتيجية» المستقبلية في معناه العام.[١]

## المستقبلية والمرحلية

والمستقبلية أو المذخورية أو «الاستراتيجية» كلها تدور حول فكرة وضع هدف بعيد في الزمان المستقبل والعمل على تحقيقه بشتى الوسائل، وهذه الوسائل تُسَمَّى أهدافا مرحلية أو «تكتيكية» فإذا كان هدف الأمة الإسلامية هو نشر الدعوة الإسلامية «كلمة الله هي العليا».

١) هذه الكلمة مشتقة من الزخر، وهو ادخار الشيء للمستقبل ليكون نافعًا ونفيسًا، والمعنى موجود في معاجم اللغة، إلا أن الاشتقاق من عند المؤلف.

فإن ذلك لا يتم بالمقالات الأدبية، ولا بالخطب الحماسية ولا يكون الدين في ذاته صحيحا، وإنما يتم بأن تتضافر جهود الأمة مجتمعة للوصول إلى هذا الهدف الكبير، فالزارع في أرضه يبذل الجهد والعرق ويصل الليل بالنهار في العمل، وهو يعلم أن ما ينتجه من حبوب يساعد الأمة في الوصول إلى هدفها الكبير[١]، والصانع في مصنعه، والمدرس في فصله... وهكذا.

والاستراتيجية نُقِلت من معناها العسكري وأصبحت من أسرار تفوق الأمم المتقدمة، والأمة الإسلامية تعيب على نفسها ويعيب عليها غيرها عدم وجود الهدف البعيد، وعدم التخطيط له بعد تحديده، وينقل أعداء الإسلام اتهامهم للأمة المتخاذلة إلى اتهام الإسلام نفسه كدين.

ولذلك فمهمة هذا البحث هي إثبات وجود الهدف والتخطيط له في الإسلام بصورة ليس لها نظير في كل الأديان، السماوي منها والوضعي على السواء، وإذا كانت العلوم تبدأ أفكارا ثم تتطور ويكون الأصل دائما هو الفكرة الأولى، فإن الأفكار التي طرحها الإسلام كقاعدة لهذا العلم لهي أغنى وأثرى من غيرها من الفرضيات التي وُضِعَت في بداية العلوم أو اكتشاف العلوم.

## لمحة عن الاستراتيجية:

١) يعرف «ليدل هارت» الاستراتيجية القومية أو العليا بأنها: السياسة التي تقود سير الحرب، ويستخدم تعبير الاستراتيجية العليا لشرح «فكرة السياسة خلال التنفيذ» وإيضاح أن دورها الحقيقي هو: توجيه وتنسيق كل إمكانيات البلاد بغية الوصول إلى الهدف السياسي للحرب.

---

١) يساعد على فهم هذا المعنى ما يفعله اليهود حينما يأتون إلى إسرائيل، ويعملون ليلا نهارا من أجل إعادة مملكة داوود وشعب الله المختار.

ويتعين على الاستراتيجية العليا: أن تقدر وتضاعف الإمكانيات الاقتصادية والقدرة البشرية بقصد دعم الوحدات المقاتلة، علاوة على دعم القوي المعنوية، والاستراتيجية العليا تتولى أيضا تنظيم وتوزيع الأدوار والقِوَى بين مختلف المرافق والصناعة، وعلينا أن ندرك أن القدرة الحربية عامل واحد من عوامل الاستراتيجية التي يدخل في حسابها قوة الضغط المالي، أو السياسي، أو الدبلوماسي، أو الاقتصادي، أو المعنوي، وكلها عوامل هامة لإضعاف إرادة الخصم.

«إن مدى الاستراتيجية العسكرية محدود بالحرب، ولكن الاستراتيجية العليا تنظر إلى ما وراء الحرب، نحو السلم الذي سيعقبها».

٢) ويتفق الجنرال «أندريه بوفوط» مع «هارت» حين يعرف الاستراتيجية بقوله «تقع الاستراتيجية الشاملة في قمة الاستراتيجيات، وتخضع مباشرة لإرادة الحكومة ـ أي السياسة ـ وعلى هذه الاستراتيجية فهم وتحديد سير الحرب الشاملة، ويتلخص دورها في تحديد المهمة الخاصة بمختلف الاستراتيجيات السياسية والاقتصادية والدبلوماسية وتأمين توافقها.

هذا عن الاستراتيجية العليا، أما تعريف العلماء لاستراتيجية الحرب فهو كالتالي:

أ) فن إعداد المعارك ووضع الخطط العامة للحملات العسكرية.

ب) فن استعمال المعارك لتحقيق أغراض الحرب.

ج) تحضير أو تطوير خطة الحرب، وربط الأنشطة المتتابعة التي تقود إليها.

د) وعند «ليدل هارت» هي فن توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق هدف السياسة.

هـ) وعند «بوفر» هي فن استخدام القوى العسكرية للوصول إلى نتائج حددتها السياسة.

و) وعند «ريمون آرون» هي قيادة وتوجيه مجمل العمليات العسكرية، أما الدبلوماسية فهي توجيه العلاقات مع الدول الأخرى على أن تكون الاستراتيجية والدبلوماسية تابعتين للسياسة.

ومن هذه التعاريف يظهر لنا الآتي:

إن المهمة الأساسية للاستراتيجية القومية (العليا) هي: تكييف مختلف الوسائل في حدود اتجاهات السياسة العامة للدولة، والإمكانيات المادية والبشرية المتوافرة لتحقيق الأغراض السياسية للدولة.

أما الاستراتيجية العسكرية فهي إعداد ووضع الخطط العامة التي تحدد طريق استخدام القوات المسلحة، لتحقيق أغراض السياسة العسكرية من خلال تنفيذ عمليات حربية- محدودة أو واسعة النطاق- ووضعها في إطار تخطيطي مفصل.[1]

ولكي لا تختلط المعلومات في ذهن القارئ نحدد معاني بعض المصطلحات المستعملة في هذا المجال:

١) **الغرض**: هو الغاية النهائية أو المقصود الرئيسي.

---

١) نُقل بتلخيص من كتاب «تخطيط المشروعات الصناعية»، للدكتور مهندس محمد فاروق الهيثمي، ص ١١٠ وما بعدها، ط دار النهضة المصرية ١٩٤٩م.

٢) **الهدف**: هو غرض عملي محدود يجب الوصول إليه.

٣) **سياسة**: مجموعة مبادئ وقواعد واتجاهات عريضة تسهل الوصول إلى الأغراض المطلوبة.

ومن هنا يتضح اختلاف الغرض والهدف والسياسة عن الاستراتيجية وذلك لخلوها من التخطيط وهو أهم ما يميز الاستراتيجية عليا كانت، أو عسكرية.

ولكي تنجح الاستراتيجية أو المستقبلية أو المذخورية، فلا بد لها من العمل الجاد الذي يرى فيه المؤمن أنه يقربه إلى الله تعالى، وأنه يدخل ضمن الهدف الأساسي من خلق الإنسان في الأرض.

وأي أمة تريد أن تعصم نفسها من الفناء لا بد لها من إسهامات حضارية، أي إضافات تعمل على تطوير الحياة ودفع مشروع الحق تعالى إلى الأمام.

## إسهامات الأمة الإسلامية في الحضارة الإنسانية:

وإسهام الأمة- أي أمة- في الحضارة، هي عمارة الأرض أو قيام الحضارة، وهي من مهمات الإنسان الأساسية الكبرى، وقام بها البشر جيلا بعد جيل، وأمة بعد أمة، وكلما تعبت أمة تلقت الراية أمة فتية، وقد تضافرت جهود الأمم، وراح اللاحق يبني على جهود سلفه ويزيد ويطور.

فمن أراد العمران فعليه أن يتعلم علوم عصره كلها، حتى قال أكثر الفقهاء في «فرض الكفاية» إن الأمة كلها تصير آثمة إذا وجدت صنعة أو علما، وليس في الأمة من يعرفه أو يمارسه.

ويقول الأستاذ سيد قطب: لقد غابت الأمة الإسلامية عن الشهود وعن الوجود دهرا طويلا، وقد تولت قيادة البشرية أفكار، وأمم أخرى، وتصورات أخرى، وأوضاع أخرى فترة طويلة، وقد أبدعت العبقرية الأوربية في هذه الفترة رصيدا ضخما من العلم، والثقافة، والأنظمة والإنتاج المادي، وهو رصيد ضخم تقف عليه ولا تفرط فيه ولا فيمن يمثله بسهولة، وبخاصة أن العالم الإسلامي يكاد يكون عاطلا من هذه الزينة.[١]

وبعد أن قدم المؤلف في الفترة السابقة صورة للمأزق الذي أُدْخِلَت الأمة الإسلامية فيه بتكاسلها وقعودها، وكيف أن الحياة تتمسك بمن يطور الحياة، ويدفعها للأمام ـ وهذا هو سر سيادة الأوروبي في العصر الحديث أنه ساد بعلمه وعمله ورؤيته الواضحة للمستقبل له ولغيره ـ وهذه للأسف حقيقة لا يمكن إنكارها.

وعن إسهامات الأمة الإسلامية يقول الدكتور نعمان عبد الرازق السامرائي: «لقد مررنا بمواقف من هذين الهدفين «العبادة والعمارة» يمكن تفصيلها على الوجه التالي:

١) في الجاهلية لم نكن نعبد الله ولا نساهم في الحضارة باستثناء ما قدمه أهل اليمن ومصر والعراق من مساهمات معمارية.

٢) في الإسلام عبدنا الله تعالى حق العبادة، ثم رحنا نساهم في بناء الحضارة حتى حملنا الراية بجد وجدارة، وراح العالم يقتبس منا، وينقل عنا، وقد شكا قسس ورهبان مر الشكوى من تعلم أبنائهم في الغرب لغتنا وعلومنا.

١) الأستاذ سيد قطب، معالم في الطريق، ص ٨.

٣) بعد قرون اكتفينا بالعبادة وأهملنا الحضارة، وساهم التصوف والنكبات السياسية وغيرهما في هذا التوجه، ثم مع الأيام دخل العبادة الكثير من الدخن، حتى لا نجد مسجدا كبيرا يخلو من قبوراً وشاعت زيارة القبور والتبرك بها ودعوة أصحابها وطلب شفاعتهم، وهكذا صرنا مبتدعين في العبادة مقلدين في الحضارة.

٤) لقد أهملنا الحضارة حتى لم تعد من بين همومنا ولا من تطلعاتنا، وضاقت دائرة العلم وراحت معاهدنا تضيق يوما بعد يوم من العلوم المفيدة، والتي خلت من الإبداع، تخلو من الجدة وتبعد عن الحياة.

٥) أعقب ذلك مرحلة أهملنا حتى العبادة، فصار الفرد منا بعيدا عن معانيها (الواسعة والضيقة) ويكتفي أن يُقال عنه إنه مسلم، دون أن يتكلف شيئا، وساعد على ذلك رواج فكر المرجئة، حتى صار جمهور الأمة منها دون أن يدعوه أحد إليها.

فكل مسلم يدعي أنه عامر القلب بالإيمان، وهذا في نظره يكفي، وقد ينكشف الأمر فيدعي طهارة القلب، وعفة اللسان، وأنه أفضل من كثير ممن يمارسون العبادة.

إن الأمة إذا كانت قوية تطلعت إلى الأمور الكبيرة، فإذا ضعفت تحاول فلسفة ضعفها وهزائمها، لذلك كانت أفكار المرجئة والمتصوفة أفضل فلسفة تناسب هذه المرحلة.

٦) أخيرا وبعد الصحوة الإسلامية رجعنا للعبادة مرة ثانية، ولكن ما زال جمهور الأمة غائبا عن الاهتمام بأمر الحضارة.

فليس من الحضارة أن تركب سيارة لا تعرف عنها سوى القيادة، وليس من الحضارة أن تأكل فاكهة أوروبا وأمريكا، ولكن أن تساهم في علوم العالم وصناعته، وعلى رأس كل ذلك أن تساهم في تقديم فكر متميز لا يكون عالة على أحد ولا تبعا لأحد.(١)

في الفقرات السابقة قدم المؤلف تسلسلا لإسهامات الأمة الإسلامية في الحضارة وبيّن الربط الشديد بين «العبادة والعمارة» في أول عهد العرب بالإسلام وكيف تخلف ذلك الآن، ويعتب على شباب الصحوة الإسلامية أنهم عادوا للعبادة ولم يعودوا للعمارة، وهناك خطورة في استهلاك منتجات الحضارات الأخرى.

ويرى الكاتب مالك بن نبي: أن لكل حضارة منتجاتها فهي متولدة عنها، ولكن لا يمكن صنع حضارة بمجرد تبني منتجاتها فهي متولدة عنها، فشراء ما تنتجه الحضارة الغربية من كافة دول العالم لم يجعلها تكسب حضارة، فشراء المنتجات هو كسب وتحصيل للهيكل والجسد، وليس للروح، والحضارة ليست تكديس منتجات، بل هي فكر ومثل وقيم لا بد من كسبها أو إنتاجها.(٢)

والفكر الذي يقصده «مالك بن نبي» هو فكر ومثل وقيم العمل، والالتزام والتخطيط والنظر بعمق للمستقبل والعمل على حل مشكلاته، هذه هي معطيات الحضارة كما يراها مالك بن نبي، وليس استهلاك منتجات الحضارة هو الذي ينقلها إلى الآخرين.

وقد يقول بعض المسلمين أنه يريد الآخرة ويكفيه في ذلك العقيدة الصحيحة والعبادة السليمة...

١) نُقل بتلخيص من مجلة البيان والتي تصدر في لندن، العدد ٤٢، ص ٣٨ وما بعدها
٢) مالك بن نبي، شروط النهضة، ٤٢.

والجواب: نعم قد يصل المسلم إلى الجنة عن هذا الطريق، ولكنه يخرج من الدنيا ولم يقدم لها شيئا ومن غير أن يسهم في الحضارة، وعلى النقيض من ذلك تجد إنسان الحضارة الغربية لا يؤمن بالله تعالى، وإن آمن به فهو يعزله عن الحياة، لأن إنسان الغرب جعل دينه الحضارة وكل شيء في حياته، وقفز بها قفزات كبيرة ولن يستطيع أحد تجاوز ذلك أو جحوده، ولن تفرط البشرية في منجزاتها الحضارية، ومع ذلك فإنسان الغرب مثل المسلم تماما أخذ جانبا من مراد الله للإنسان وترك جانبا آخر.

وإذا تركنا المسلم المتجه إلى الآخرة والغربي المتمسك بالدنيا ويصنع الحضارة، فسوف نجد ملايين من البشر تدب على هذه الأرض لا تعرف الله تعالى ولا تعبده، ولا تساهم في الحضارة من قريب أو بعيد، وفي أمثالهم يصدق قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾.

وأقبح من الكل تلك الملايين من البشر التي تعجز حتى عن إطعام نفسها وتطالب الآخرين أن يطعموها ويداووها ويبنوا لها المساكن.

وفي العالم اليوم ملايين من الكسالى ليس لديهم الاستعداد لعمل شئ، حتى الخبز تريده جاهزا وربما مدهونا بالعسل، والأمة الإسلامية مدعوة بكل جد وقوة لعبادة الله تعالى كما أمر، وعدم الشرك مهما صغر، والمساهمة في الحضارة دون أن تفلسف كسلها وعجزها وتخلفها.

إن العالم يموج بالأقوياء، ومن لا يكون قويا بفكره واستقلاله فإنه يعيش على الهامش كما تعيش بعض القوارض، وستظل الدنيا محكومة بالأقوى، فكرا، وإنتاجا، وتحضرا، ولن يكون فيها مكان للكسالى المتواكلين، ولن يجدوا خبزا جاهزا، ولا سكنا جاهزا، ولا قرا جاهزا. [١]

---

١) المصدر السابق: نقل بتصرف ص ٤١، ٤٢.

ولا يقف التدهور الذي ينتج عن ترك المساهمة في الحضارة عند الجانب الاقتصادي فقط، بل يتعداه إلى هوية الأمة نفسها، فمع تخلف الأمة وتقدم غيرها، تبدأ الذهنية الإسلامية في الميل ناحية الذين يصنعون الحضارة، وكم من أناس خصموا من حساب الدعوة الإسلامية بسبب انبهارهم بالحضارة الغربية:

(ذلك أن اصطدام المسلمين بالحضارة الغربية الأوروبية تم في مرحلة كان الضعف العسكري والسياسي غالبين فيها على المسلمين، فكان طبيعيا أن يترك ذلك بصماته واضحة على الموقف النفسي تجاه الحضارة الغازية، فاستقر في وعي أكثر المسلمين أن الحضارة الغربية بمكوناتها العقلية وبنتاجها الفكري الذي استطاعت به تسخير الكون وتعميره، مرحلة أكثر تقدما من كل ما عرفته البشرية، وأن الاتجاه إليها بكل مكوناتها تحرك نحو الأفضل، وأن متابعة أساليب الحياة وأنماط السلوك السائدة في الغرب هو معيار التقدم وضمانه على السواء، واستقر هذا الموقف النفسي، وانتقل من جيل إلى جيل).[1]

هذا هو الموقف النفسي الذي يخشاه كل من يعمل في حقل الدعوة الإسلامية: أن نقف مبهورين بحضارة الغرب، إنه موقف يبعث على الحزن والأسى، فكيف نترك إسهاماتنا في الحضارة البشرية وديننا يحثنا على التخطيط والعمل، ولكننا فهمناه فهما خاطئا.

وفي الصفحات التالية سيتضح مصداق ذلك، وأننا لو نفذنا ما في ديننا من حث على التخطيط والعمل، وفهمنا رسالتي الإسلام والإنسان في الحياة كما فهمها أسلافنا لسدنا العالم كما سادوا ولم نصل إلى الموقف الذي وصلنا إليه الآن: لا

١) د. أحمد كمال أبو المجد: حوار لا مواجهة ص ٦٧ جـ ١ كتاب العربي.

نعمل لعمارة الأرض، ولا نخطط لتطوير الحياة، بل إن كسلنا وتخاذلنا قد صادر علينا العمل، وجاء إعجابنا بالغرب فصادر[1] علينا الأمل... وأمسينا بلا أمل ولا عمل ... فهل نعود؟

هذه الصفحات أمل في ذلك ....

١) صادره على كذا: طالبه به في إلحاح. (المعجم الوسيط، ص ٣٦١ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٩٩م).

## الفصل الأول

# الفِكر المُستقبليّ في القُرآن الكريم

من المفارقات المثيرة أن من يبحث عن الفكر المستقبلي في القرآن الكريم، يجد تناقضا غريبا بين دلالة النص القرآني على العناية بالمستقبل وبين فهم علماء المسلمين لهذه الدلالة.[1]

ففي حين أن القرآن الكريم يهتم اهتماما بالغا بالمستقبل، ويحرض المؤمنين على الاهتمام به، نجد أن علماء المسلمين وخاصة المفسرين يجنحون إلى ترك الحديث عن المستقبل، على اعتبار أنه بيد الله سبحانه وتعالى، ويمنعهم إيمانهم هذا من البحث والدرس للفكر المستقبلي في القرآن الكريم.

والقرآن الكريم يعرض الفكر المستقبلي بأساليب شتى: بالأمر المباشر أحيانا، وبالأسلوب القصصي ووضع المقدمات في أحيان آخرى، وسنأخذ بعض المواقف التي تعالج هذا الموضوع.

### ١) الموقف الأول: الأمر المباشر:

يأتي الأمر المباشر في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

من النظرة الأولى إلى هذه الآية الكريمة، يتبادر إلى الفهم عناية القرآن الكريم بالغد ـ أي المستقبل ـ سواء كان في الدنيا أو في الآخرة، والذي يفيد هذا المعنى

---

١) عند الحديث عن أثر علم العقيدة على الفكر المستقبلي، سيزداد الأمر وضوحا بالنسبة لهذه النقطة من البحث.

٢) من سورة الحشر: الآية ١٨.

من الآية الكريمة تنكير لفظة «لغد» لأن تنكير لفظة ما يفيد عمومها وشمولها كما تنطق بذلك قواعد اللغة العربية، ولو أُخذت هذه الآية بهذا المعنى قديما لكان لها أكبر الأثر في تفوق الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم، ولكن لأسباب كثيرة، سوف تتضح في ثنايا هذا البحث- أصر كثير من المفسرين القدامى والمحدثين على جعل «الغد» هو يوم القيامة، وهذه بعض النماذج التي تبرز رأيهم في «الغد».

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ يعنى يوم القيامة، والعرب تكني عن المستقبل بالغد، وقيل: ذكر الغد تنبيها على أن الساعة قريبة، كما قال الشاعر: «فإن غدا لناظره قريب»(١)

وقال الحسن وقتادة: قرب الساعة حتى جعلها كغد، ولا شك أن كل آت قريب، والموت لامحالة آت، ومعنى ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾: يعني من خير أو شر ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أعاد هذا تكريرا كقولك: عَجِّل عَجِّل . ارم ارم . وقيل التقوى الأولى فيما مضى من الذنوب، والثانية اتقاء المعاصي في المستقبل.(٢)

والغد يوم القيامة: سماه باليوم الذي يلي يومك تقريبا له، وعن الحسن: لم يزل بقربه حتى جعله كالغد، وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد، فإن قلت: ما معنى تنكير النفس والغد؟

قُلت: أما تنكير النفس: فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة- وعن مالك بن دينار: مكتوب على باب الجنة: «وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدمنا، خسرنا ما خلفنا» (٣)

١) في فوائد الآل أن قائل هذا البيت هو قراد بن أجدع للنعمان بن المنذر، ولفظ البيت:

فإن يك صدر هذا اليوم ولى ... فإن غـــدًا لناظره قــريب

٢) الإمام القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٤٨ ط دار الشام للتراث.

٣ ) الإمام الزمخشري، الكشاف ٤/ ٨٦ ط الحلبي ١٩٨٦م.

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر بتقواه، وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر.

- ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم ميعادكم وعرضكم على ربكم واتقوا الله تأكيد ثان.[1]

- ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، وهو تعبير ذو ظِلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه، ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته، ويمد بصره في سطورها كلها، يتأمل وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته لينظر ماذا قدم لغده في هذه الصفحة وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف، ومواضع نقص، ومواضع تقصير، مهما يكن قد أسلف من خير، وبذل من جهد، فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا، ونصيبه من البر ضئيلا؟

إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدا، ولا يكف عن النظر والتقليب.[1]

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ليوم القيامة، سماه به لدنوه، أو لأن الدنيا كيوم، والآخرة كغده، وتنكيره للتعظيم.[1]

١) الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٤٢ ط دار المعرفة، بيروت.
٢) الأستاذ سيد قطب، ٦/ ٣٥٥١ ط دار الشروق، ١٩٨٦.
٣) الإمام البيضاوي، ٢/ ٢٥٧ ط الحلبي ١٩٥٥م.

بعد هذا السرد المتتابع لأقوال مجموعة من المفسرين الأجلاء، رأينا أن هناك شبه إجماع من القدامى والمحدثين من المفسرين على أن الغد المقصود في الآية الكريمة هو يوم القيامة ، ولكن هيهات أن نسلم لهم بهذا القول، وإن كنا نسلم لهم جميعا بمزيد فضل وسبق.

والحجة التي تقف في مواجهة هذه الأقوال تعتمد على العناصر الآتية:

١) إنه ليس هناك نص من القرآن الكريم، أو السنة الشريفة يخصص هذا الغد بيوم القيامة.

٢) إن القاعدة عند جمهور المفسرين أن التنكير يفيد العموم، ومع ذلك لم تُستعمل هذه القاعدة في هذه الآية كغيرها من الآيات في كتاب الله سبحانه وتعالى.

٣) ومع وجود الإباحة في التنكير، فلا يوجد دليل منع واحد.

٤) أن فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام يتسم بالمستقبلية والتخطيط الدقيق.

٥) وإذا كان «الغد» هو يوم القيامة فأي شيء يقدم للغد غير التخطيط للغد الدنيوي الذي يحفظ على المسلم كرامته وهيبته، ويجعل الأمة الإسلامية جديرة بالخلافة، وأن تكون خير أمة أُخرِجت للناس.

٦) والمفسرون حين يهملون المستقبل الدنيوي، فإن ذلك يرجع للفصل الشديد عندهم بين الدنيا والآخرة ونظرتهم للدنيا على أنها لهو ولعب، وهي كذلك بالنسبة للعابثين الذين تستهويهم لذة العيش والخلود إلى الراحة، ولكنها ليست كذلك عند أولئك الذين يطورون الحياة وينهضون بمشروع الله تعالى في تطوير كونه الواسع الغريب.

٧) إن المفسرين يتأثرون بعلوم المسلمين الأخرى مثل علم العقيدة وغيره، وهي علوم تجعل من الإيمان بالله تعالى نبذا لكل جهد يقوم به الإنسان.

والرأي في هذه الآية الكريمة أنها تعني كل غد بما في ذلك يوم القيامة، وأنه على كل مؤمن أن يتقي الله تعالى ويهتم بكل غد مقبل عليه، لأن الغد هو ما يستطيع الإنسان العمل فيه، لأن الماضي لا يمكن استرجاعه إلا للذكرى فقط، والحاضر يتحول إلى ماض بلحظاته المنصرمة وأهدافه المتلاحقة، فلا يبقى للمؤمن الذي يخشى الله تعالى إلا الغد؛ يخطط له ويطمئن على ما قدم هل، وينظر إليه بدقة ويعيد حسابه مرات عديدة، ويتوكل بعد ذلك على الله تعالى. والناظر إلى منهاج القرآن الكريم يجعل الدنيا والآخرة طلبة العبد المؤمن ومجال علمه وعمله، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[1].

فهؤلاء المؤمنون يطلبون نجاحا في الدنيا وفلاحا في الآخرة، والقرآن يقرهم على ذلك.

## ٢-الموقف الثاني الغد في رعاية الله وتوفيقه:

المواقف القرآنية التي تتحدث عن الإعداد للمستقبل والتخطيط له، ولكن المفسرين خرجوا كالعادة بالمعنى عن هدفه وأخذوه بعيدا عما وُضِع له، وهذا الموقف هو قول الله تعالى في سورة الكهف:

---

١) سورة البقرة، الآيتان ٢٠١، ٢٠٢.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾[1].

ومن ينظر إلى الآيتين الكريمتين يجد أنهما تضعان نوعا من الاحتياط يلتزم به المسلم عند التخطيط للمستقبل. والمعنى أن ما خطط له العبد ودبره لن يكون مضمون النجاح إلا إذا شمله توفيق الحق سبحانه وتعالى، لأن في الغد أمور قد تغيب عن العبد.

فتقديم المشيئة سيساعده على تجاوزها هذا في القسم الأول من المعنى، والقسم الثاني قوله ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾، والمعنى هنا: أن الإنسان مهما خطط فأحسن التخطيط، يجب ألا يغتر بتدبيره وينسى ربه الذي وفقه لهذا التدبير، بل ويطلب من الله تعالى نتائج أفضل مما نظم وخطط- وفهم المعنى بهذا الشكل لا يتعارض مع سبب نزولها، بل يوضحه ويشرحه، فإذا قال النبي ﷺ لليهود سأجيبكم غدا، فإنه كان ينوي البحث عن الإجابة من خلال انتظار نزول الوحي عليه.

والمسألة فيها قسمان: قسم هو تخطيط النبي ﷺ للإجابة في الغد، وقسم يتعلق بنزول الوحي من عند الله تعالى، فأمره بتقديم المشيئة لكي يجتمع له الأمران: تدبير الإنسان وتوفيق الرحمن، ويجب أن يكون هذا هو دستور كل مسلم في حركته في الحياة.

١) سورة الكهف، الآيتان ٢٣ ، ٢٤.

ولو فطن السابقون لهذه المعاني لدفعوا الأمة كلها إلى الأخذ بمبدأ التخطيط والإعداد للمستقبل، ولكان حال الأمة غير ما هي عليه الآن من هوان، أمة تعيش عالة على أعدائها.

وسوف أعرض عليك الآن بعضا من أقوال المفسرين وفهمهم لهذه المعاني الكريمة:

## رأي الإمام الفخر الرازي:

يقول في تفسيره للآيتين السابقتين: قوله ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ليس فيه بيان أنه شاء الله ماذا، وفيه قولان:

**القول الأول:** التقدير ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي يأذن لك في ذلك القول، والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك، أنك تفعل الفعل الفلاني إلا إذا أذن الله لك في ذلك الإخبار.

**القول الثاني:** أن يكون التقدير: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ إلا ان تقول: «إن شاء الله»، والسبب في أنه لا بد من ذكر هذا القول، هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غدا لم يبعد أن يموت قبل مجيء الغد، ولم يبعد أيضا انه لو بقي حيا أن يعوقه عن ذلك الفعل شيء من العوائق، فإذا كان لم يقل إن شاء الله صار كاذبا في ذلك الوعد.[1]

١) لا نسلم بهذا الكلام للفخر الرازي، فالقرآن الكريم بالتصريح بالفعل للمستقبل مع عدم المشيئة مثل قول نبي الله إبراهيم: (إني ذاهب إلى ربي سيهدين). ولم يقدر المشيئة- وقول ذي القرنين: (أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا)، ويكثر في القرآن الكريم. أما تقديم المشيئة في هاتين الآيتين فقد جاء لأنهما يعلمان المسلمين أن التخطيط لكي ينجح لا بد أن يشتمل على التدبير من الإنسان والتخطيط من الرحمن.

والكذب منفر وذلك لا يليق بالأنبياء- عليهم السلام - فلهذا السبب أوجب عليه أن يقول: «إن شاء الله».(١)

ثم يلتفت الفخر الرازي إلى مذهبه الكلامي ويحاول إقحامه في تفسير هذه الآية فيقول: «أعلم أن مذهب المعتزلة، أن الله تعالى يريد الإيمان والطاعة من العبد، والعبد يريد الكفر والمعصية لنفسه فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الله، فتكون إرادة العبد غالبة وإرادة الله تعالى مغلوبة، وأما عندنا فكل ما أراد الله تعالى فهو واقع، فهو تعالى يريد الكفر من الكافر».(٢)

ويريد الإيمان من المؤمن، وعلى هذا التقرير فإرادة الله تعالى غالبة، وإرادة العبد مغلوبة، إذا عرفت هذا فنقول: إذا قال العبد لأفعلن كذا غدا إلا أن يشاء الله، والله إنما يدفع عنه الكذب، إذا كانت إرادة الله غالبة على إرادة العبد، فإن على هذا القول يكون التقدير: أن العبد قال أنا أفعل الفعل الفلاني إلا إذا كانت إرادة الله تعالى بخلافه.(٣)

---

١) قال موسى عليه السلام للعبد الصالح: (ستجدني إن شاء الله صابرا رلا أعصى لك أمرا) ومع ذلك لم يصبر عليه وخالفه ولم يطعن ذلك في نبوة موسى - عليه السلام - وأنت ترى أن كلام الفخر الرازى لا ينهض له دليل، وربما اكتسب قوته ممن سبقه فقط، فهو هنا يلزم الأنبياء بما لم يلزمهم الله تعالى به.

٢) لا نسلم بهذا الكلام أيضا للمؤلف، لأن الله تعالى يقول (ولا يرضى لعباده الكفر)، ويقول: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)، ولعل رأي المعتزلة أقرب إلى الفهم وأيسر في الدعوة إلى الله تعالى، أما قوله الإرادة غالبة أو مغلوبة فهو قول الرازي نفسه، وكل ذلك من قبيل الفروض النظرية، تعالى الله أن يخضع لفرض من فروض عبده.

٣) هذا الكلام الذي يقوله الإمام الرازي رفضه الله تعالى من المشركين عند الحساب فقال تعالى: (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حُرِمنا من شيء كذلك كذب الذين كذبوا من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرَجوه لنا إن تتبعون الظن وإن أنتم إلا تخرصون)- الأنعام ١٤٨- فهذه الآية نص في أن من قال إن الله تعالى لو شاء ما كفرت لم ينفعه قوله، وهذا الكلام من باب سوء الأدب مع الله تعالى، ومفهوم هذه الآية يناقض كل ما قاله الإمام الفخر الرازي في تفسير المشيئة.

فأنا على هذا التقدير لا أفعل لأن إرادة الله غالبة على إرادتي، فعند قيام المانع الغالب لا أقوى على الفعل، أما بتقدير أن تكون إرادة الله تعالى مغلوبة، فإنها لا تصلح عذرا في هذا الباب، لأن المغلوب لا يمنع الغالب، إذا ثبت هذا فقول: أجمعت الأمة على أنه إذا قال لأفعلن كذا ثم قال إن شاء الله دافعا للحديث فلا يكون دافعا للحنث إلا إذا كانت إرادة الله تعالى غالبة، وأنه لا حاصل في الوجود إلا ما أراد الله تعالى.[1]

خرج المؤلف بالمعنى المطلوب إلى قضايا متشعبة لا علاقة لها بالموضوع المراد من الآيتين، وهو التخطيط مع طلب التوفيق من الله تعالى.

## رأي الإمام الألوسي

يقول رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ أي لأجل شيء تعزم عليه «إني فاعل ذلك الشيء «غدا» أي فيما يستقبل من الزمان مطلقا، وهو تأكيد لما يدل عليه اسم الفاعل بناء على أنه حقيقة في الاستقبال، ويدخل فيه الغد بمعنى اليوم الذي يلي يومك، وهو المتبادر دخولا أوليا. فإن الآية نزلت حين سألت قريش النبي ﷺ عن الروح، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، فقال- عليه الصلاة والسلام: غدا أخبركم ولم يستثن، فأبطأ عليه ﷺ الوحي خمسة عشر يوما على ما رُوِي عن ابن إسحاق وقيل ثلاثة أيام وقيل: أربعين يوما. فشق ذلك عليه ﷺ وكذبته قريش وحاشاه.

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ استثناء متعلق بالنهي على ما اختاره جمع من المحققين، وقول ابن عطية، اغترارا برد الطبري، أنه من الفساد بحيث كان الواجب أن

---

١) الإمام الفخر الرازي: التفسير الكبير ٢١/ ١٠٩ ط.

لا يحكي خروجا عن الإنصاف، وهو مُفرغ من أعم الأحوال، وفي الكلام تقدير(باء) للملابسة داخلة على أن والجار والمجرور في موضع الحال، أي لا تقولن ذلك في أي حال من الأحوال إلا حال ملابسته بمشيئة الله عز وجل، بأن تذكر.

قال في الكشف إن التباس القول بحقيقة المشيئة محال؛ فبقي أن يكون بذكرها وهو إن شاء الله تعالى ونحوه ، مما يدل على تعليقه الأمور بمشيئة الله تعالى، ورد بما يصلح أن يكون تأييد الإرادة، وجوز أن يكون المستثني منه أعم الأوقات، أي لا تقولن ذلك في وقت من الأوقات إلا في وقت مشيئة الله تعالى ذلك القول منك، وفسرت المشيئة على هذا بالإذن، لأن وقت المشيئة لا يعلم إلا بإعلامه تعالى به وإذنه فيه.

فيكون مآل المعنى: لا تقولن إلا بعد أن يُؤذن لك بالقول، وجوز أيضا أن يكون الاستثناء منقطعا، والمقصود منه التأبيد أي: ولا تقولن ذلك أبدا، ووجه ذلك في الكشف بأنه نهى عن القول إلا وقت مشيئة الله تعالى وهي مجهولة، فيجب الانتهاء أبدا.

﴿ فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾: أي مخبر عن قول يتعلق بالوحي غدا غير مؤذن لأن قوله في الغد يكون من عنده لا عن وحي، فالتشبيه في أن الاستثناء بالمشيئة استعُمِل في معرض التأييد، وإن كان وجه الدلالة مخلفا أخذا من متعلق المشيئة تارة، ومن الجهل بها اخرى، ولا يخفى أن الظاهر في الآية الوجه الأول، وأن أمته ﷺ وهو في الخطاب الذي تضمنته سواء مخصوصا بالنبي ﷺ ولا يجوز أن يكون الاستثناء متعلقا بقوله تعالى ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾ بأن يكون استثناء مفرغا مما في حيزه من أعم الأحوال، أو الأوقات،لأنه حينئذ إما أن تعتبر تعلق المشيئة

بالفعل فيكون المعنى إني فاعل في كل حال، أو في كل وقت، إلا في حال أو وقت مشيئة الله تعالى عدم الفعل، ولا شبهة في عدم مناسبته للنهين بل هو أمر مطلوب.[1]

هذه هي خلاصة تفسير الإمام الألوسي لهذه الآية الكريمة، وما تبقى من تفسيره لهذه الآية مشابهة لما نقله الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية من آراء أهل السنة والمعتزلة، ولذلك رأيت عدم نقلها خشية التكرار، ولا يختلف رأي الإمام الألوسي عن سابقه في استخدام دلالات الكلمات استخداما فلسفيا ممزوجا بعلم الكلام، ومحاولة إدخال القارئ إلى ساحة لا توضح لكتابه تعالى معنى ولا تعود على القارئ بمنفعة عاجلة، أو آجلة، وربما نقلت لك هذه النصوص ـ مع التطويل ـ لكي تقف على حجم المأساة وتنظر عمق جذورها.

## روح البيان:

يقول صاحب روح البيان: قال الإمام في تفسيره ، والسبب في أنه لا بد من ذكر هذا القول هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غدا لم يبعد أن يموت قبل أن يجيئ الغد، قال أبو الليث ـ رحمه الله ـ روى أبو هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام، «لأطوفن على مائة امرأة، كل امرأة تأتي بغلام يقاتل في سبيل الله».

ومن لطائف روضة الخطيب أنه سُئِل رجل إلى أين؟ فقال الكناسة لأشتري حمارا فقيل له: قل إن شاء الله، فقال لست أحتاج إلى الاستثناء، قال القرطبي في تفسير هذه الآية هذا في تدارك البشري والتخلص من الإثم. قال في مناقب

١) الإمام الألوسي: روح المعاني، ٥/ ٢٤٧، ٢٤٨ ط دار الفكر بيروت، ١٩٧٨م.

الإمام الأعظم، رُوِي أن محمد ابن اسحاق صاحب المغازي كان يحسد لما رأى من تفضيل المنصور أبي جعفر أبا حنيفة على سائر العلماء.[١]

يُلَاحظ على الفقرة السابقة السطحية وعدم الجدية، والتمسك بمرويات لا سند لها ولا تساعد على فهم المعنى، وكما أسلفت من قبل، فهذه التفاسير لا يُكتب لها البقاء لذاتها، ولكنها تكتسب أهميتها من الزمنية والعصبية، أما الزمنية فإنها كُتبت منذ زمن بعيد يُنظر إلى علمائه باحترام بالغ، وأما العصبية فلأن كثيرا من العلماء كانوا يكتبون متشيعين لمذهب معين؛ وكان أنصار هذا المذهب يتشيعون لهؤلاء العلماء في حياتهم وبعد موتهم، ومن هنا ضاع كثير من الحقائق في زحام الزمنية والعصبية، ولكي تقف على صحة هذه المقولة، اقرأ ما كتبه هذا المفسر ثم انظر ما نُعِت به في ألقاب.[١]

ولذلك وصلنا في ثقافتنا الإسلامية إلى وضع إذا أردت فيه أن تجلي موقفا من مواقف القرآن الكريم فعليك أولا: أن ترفع من فوق المعنى الحقيقي لهذا الموقف الكثير من الأوراق والأحبار والعصبيات التي وضعت فوق هذا الموقف، لتأكد صحة الموقف الذي وضعت له مكتسبة قوتها من بعدها الزمني، مع أن البعد الزمني قيد على التفسير الموضوع فيه، وليس ميزة له، لأن القرآن الكريم يناسب كل زمان ومكان، وعليك ثانيا: أن تواجه الذين تشيعوا لهذا الفكر الزمني العصبي، وبعضهم حفظه عن ظهر قلب، ولم يفكر فيما حفظ ، بل لم يحاول ذلك.

١) إسماعيل حقي البرسوي، روح البيان ٥/ ٣٤ ط دار الفكر، بيروت.

٢) ووُصِف الشيخ إسماعيل حقي بأنه العالم الفاضل والشيخ النحرير الجامع الكامل بين البواطن والظواهر ومفخر الأماثل والأكابر، خاتمة المفسرين، وقدوة أرباب الحقيقة واليقين، فريد أوانه، وقطب زمانه، منبع جميع العلوم، مولانا، ومولى الروم/ الشيخ إسماعيل حقي البرسوي، قدس الله سره العالي.

ومن الأدلة على ذلك، اختفاء الفكر المستقبلي في التفاسير مع وضوحه ناصعا في القرآن الكريم.

## رأي صاحب فتح القدير:

يقول: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾

لأجل شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبر عنه بالغد، ولم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولا أوليا، قال الواحدي: قال المفسرون: لما سألت اليهود النبي ﷺ، عن خبر الفتية فقال: أخبركم غدا، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه حتى شُقَّ عليه فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله تعالى يقول: إذا قلت لشيء إني فاعل ذلك غدا فقل إن شاء الله، وقال الأخفش، والمبرد، والكسائي، والفراء: لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن تقول إن شاء الله، فأضمر القول، ولما حذف تقول ذلك في حال من الأحوال، إلا حال ملابسته لمشيئة الله، وهو أن تقول إن شاء الله، أو في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقا: وقيل: الاستثناء جار مجرى التأبيد، كأنه قيل: لا تقولنه أبدا كقوله: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾، لأن عودهم في ملتهم مما لا يشاؤه الله ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الاستثناء بمشيئة الله ـ أي فقل إن شاء الله سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة.[1]

والإمام الشوكاني يميل إلى ما ذهبنا إليه في بداية هذا الموقف، وهو: إن قول إن شاء الله تعالى لجلب التوفيق، إلا أنه يُلاحظ في كل ما تقدم من تفاسير لهذه الآية الكريمة، لم يظهر المعنى الذي يخدم المستقبل أو الفكر المستقبلي في القرآن الكريم،

١) الإمام الشوكاني: فتح القدير ٣/ ٢٧٨ ط الحلبي ١٩٦٤م.

وهذا ما يؤكد أن الفكر المستقبلي ليس له حظ في الفكر الديني عند كثير من العلماء القدماء والمحدثين، رغم أن مصادر الإسلام (القرآن الكريم والسنة الشريفة)، تحمل هذا الفكر المستقبلي وترعاه كما رأينا في هذه الآية الكريمة، وسوف يتضح هذا أكثر في تفسير الموقف التالي :

## الموقف الثالث الدعوة إلى التضحية:

والموقف الثالث من المواقف التي تتحدث عن المسستقبل في القرآن الكريم، بل لعل هذا الموقف يُعتبر نصا في هذا الموضوع وهو يؤكد ما ذهبنا إليه وما التزمنا به من أن التخطيط للمستقبل ليس شيئا مستحدثا بل هو ركن أصيل من أركان الفكر الإسلامي، وأسلوب متميز من أساليب النجاح في الفترات التي ساد فيها الفهم الصحيح للإسلام.

يتجلى هذا الموقف في قصة نبي الله تعالى موسى- عليه السلام- مع العبد الصالح، وقد ذهب المفسرون فيها أو في فهمها مذاهب شتى، فمنهم من رآها تعبيرا عن العلم اللدني، وهو علم يُولَع به المتصوفة وأرباب الكرامات، ومنهم من أوقفها على أحداثها ورأى أنها شيء جدير بالتأمل وأنها تنفع للعظة والاعتبار، ومنهم من رآها تعبيرا عن القدرة الإلهية القاهرة والباهرة في آن واحد.

ولكن ليس من بين المفسرين من رآها رعاية للمستقبل وتأمينا له، وأنه من أجل المستقبل يجب التضحية بكل غال ونفيس، والذي منع المفسرين من فهمها على هذا النحو، هو خلو ساحة الفكر الإسلامي من التوجه المستقبلي، أو من التخطيط للمستقبل البعيد، وأسباب ذلك تأتي فيما بعد في ثنايا هذه الدراسة.

## ١-القصة والمستقبل:

وجه الله تعالى نبيه موسى- عليه السلام- لمرافقة العبد الصالح الذي علّمه الله تعالى علما نافعا من لدنه، وبعد أن وقف نبي الله تعالى موسى- عليه السلام- على العبد الصالح، والتمس إليه أن يرافقه ليتعلم منه، وبعد شيء من التمنع أو الرفض المعلل بضعف عزيمة موسى- عليه السلام- وافق العبد الصالح، وبدأت الرحلة، وواجهت الرحلة ثلاث مشاكل قام العبد الصالح بحلها بطريقته الخاصة.

## المشكلة الأولى:

انطلق نبي الله تعالى موسى- عليه السلام- والعبد الصالح إلى شاطئ البحر ليستأنفا رحلتهما، وركبا سفينة سليمة متماسكة، وليس بها عيب يُرَي، وفجأة وراكبو السفينة فوقها في وسط المياه، قام العبد الصالح فخرق السفينة، ولما سأله نبي الله تعالى موسى عن سر هذا التصرف، قال له لقد أردت أن أصنع فيها عيبا لكي أصرف عنها ذلك الملك الطاغية الذي ياخذ كل سفينة غصبا، فهذا التصرف من العبد الصالح يتعلق بالمستقبل، وهو مستقبل السفينة، لأنه أراد أن يؤمن هذا المستقبل لهم، لأنهم «مساكين ولو صودرت سفينتهم لأصبحوا يتكففون الناس، ومن أجل ذلك ضحى بهذا الخرق وبراحة راكبي السفينة وأمنهم.

## المشكلة الثانية:

وجد العبد الصالح طفلا بريئا يلعب أمام بيته فقتله، وسبب حزنا عظيما لأبويه ولموسى- عليه السلام-، فالطفل في الوقت الحاضر قرة عين لوالديه، ولكنه في

المستقبل المكشوف للعبد الصالح سيرهقهما طغيانا وكفرا، فمن أجل مستقبل آمن لهما تم قتل الغلام، واحتج نبي الله تعالى موسى-عليه السلام- على هذا الفعل، وأجاب العبد الصالح بأن قتل الطفل قد تم رعاية لمستقبل الوالدين.

**المشكلة الثالثة:**

وانطلقا ودخلا قرية وطلبا الطعام فَلم يجبهما إلى ذلك أحد من أهل القرية، وخرجا منها فوجدا عند أطرافها جدارا على وشك السقوط، فأعاد العبد الصالح إقامة هذا الجدار فغضب نبي الله تعالى موسى لهذا التصرف وسأله وهو يهم بفراقه بناء على اتفاقهما، فأخبره أن هذا الجدار لغلامين يتيمين في المدينة وتحته كنز لهما فلو أخرج الكنز في الوقت الحاضر ما استطاعا أن ينتفعا به، ولكنهما حين يبلغان أشدهما فيتصرفان فيه بطريقة طيبة، ومن أجل هذا أعدت بناء الجدار رعاية للمستقبل المالي لهذين الغلامين.

تعلقت المشاكل الثلاث برعاية المستقبل، وقد تصرف العبد الصالح فيها على النحو الذي رأيت، وكل مشكلة اقتضت تضحية بشيء من الحاضر لصالح المستقبل البعيد، وهذا هو الدرس الذي كان يجب أن يعيه المفسرون، ولو حدث هذا لتغير حال الأمة الإسلامية، لأنها شديدة التمسك بما يتعلق بكتاب الله تعالى، غير أنها-أي الأمة- لم تجد في كثير من الأحيان في تفسير كتاب الله تعالى إلا مجموعتين من الخلافات والحكايات أما المعنى الجوهري الحقيقي بالبحث فلم يلتفت إليه أحد، ولكي أدلل على ذلك أتعرض لبعض آراء للمفسرين في هذا الموضوع.

## الرأي الأول:

يقول الإمام الشوكاني: «ووجه ذكر هذه القصة في هذه السورة، أن اليهود لما سألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا: إن أخبركم فهو نبي وإلا فلا، ذكر الله تعالى قصة موسى والخضر تنبيها على أن النبي لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار.

وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى بن عمران النبي المرسل إلى فرعون، وقالت فرقة لا التفات لما تقوله؛ منهم: نوف البكائي: إنه ليس ابن عمران، وإنما هو موسى بن ميشي بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران وهذا باطل».[1]

يرى الإمام الشوكاني أن هذه القصة رُوِيت هنا لكي يفهم اليهود أن النبي ﷺ لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار، وهذا هو الهدف من رواية القصة عنده، والحقيقة أن هذا الهدف متواضع جدا، بجانب عملية التخطيط لشيء يأتي في المستقبل ورعايته، ومثل هذه التفسيرات أو الشروح لكتاب الله تعالى تصرف الذهن المسلم عن التفكير في الأمور المهمة والمفيدة.

## رأي الإمام الألوسي:

يقول الإمام الألوسي في تفسير هذه الآيات: «وذهب عبد الرازق الكاشي إلى أن الخضر عبارة عن البسط وإلياس عن القبض، وذهب بعضهم إلى أن الخضرية رتبة يتولاها بعض الصالحين على قدم الخضر الذي كان في زمان موسى- عليهما

١) الإمام الشوكاني: فتح القدير ٣/ ٢٩٧

السلام- ومع وجود هذه الأقوال لا يتم الإجماع، وكونها غير مقبولة عند المحققين منهم لا يتممه أيضا، وإجماع جماهير العلماء على ما نقل ابن الصلاح والنووي ومسلم، لكنه ليس الإجماع الذي هو أحد الأدلة الشرعية والخصم لا يقنع إلا به...

{والخضر ...} له علامات عند أهله ككون الأرض تخضر عند قدمه، وأن طول قدمه ذراع، وربما يظهر منه بعض خوارق العادات بما يشهد بصدقه على أن المؤمن يصدق بقوله بناء على حسن الظن به، وقد شاع بين زاعمي رؤيته عليه السلام أن من علاماته أن إبهام يده اليمني لا عظم فيه، وأن بؤبؤ إحدى عينيه يتحرك كالزئبق.. وتعقب بأنه بأي دليل ثبت أن هذه علاماته: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾...

وظهور الخوارق مشترك بينه وبين غيره من أولياء الأمة، فيمكن أن يظهر ولي خارقا ويقول: أنا الخضر مجازا لأنه على قدم الخضر أو لاعتبار آخر، ويدعوه لذلك داع شرعي...

ومما يُبْنَى على اجتماعه-عليه السلام- بالكاملين من أهل الله تعالى، بعض طرق إجازتنا بالصلاة البشيشية فإنها تُروى عن الخضر- عليه السلام- عن الولي الكامل الشيخ عبد السلام بن بشيش قدس سره». (١)

في الفقرات السابقة ترك الإمام الألوسي الهدف الواضح من سرد هذه القصة وهو رعاية المستقبل، والتضحية من أجل ذلك، وقد نُقلَت هذه الفقرات على طولها لأوضح أمرين:

---

١) الإمام الألوسي: روح المعاني ٥/ ٢٣٧ ط دار الفكر ١٩٧٨م.

**الأول:** خلو معظم التفاسير من الفكر المستقبلي.

**والثاني:** البحث عن المجهول والمبهم، وإقامة المعارك حوله وليس هذا أمرا هينا كما يبدو للناظر لأول وهلة، بل هو أمر شغل علماء الأمة واستقطب اهتمامهم لفترات طويلة من التاريخ الإسلامي، وأحاطت بأحلام البسطاء من المسلمين الذين لا يستطيعون الوصول إلى رضا الله تعالى على قدم الخضر مثلا، والذين لم يتمكنوا من مشاهدة إبهام يده اليمني، وهل به عظم أم لا.

كانت هذه المعارك دائرة، والعدو ينقض على أرض الإسلام من كل جانب..

## رأي الشيخ إسماعيل البرسوي:

ينحو الإمام البرسوي في تفسيره إلى الاتجاه الصوفي، ويجعل السر في القصة هو محاولة موسى الحصول على الوحدة مع الله تعالى فيقول: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾، بإرشاد الله لك أي تعلمني طريق الاسترشاد من الله بلا واسطة جبريل والكتاب المنزل، ومكالمة الحق تعالى فإن جميع ذلك كان حاصلا له، فإن قيل فهل مرتبة فوق هذه المراتب الثلاث؟

قلنا: إن هذه المراتب وإن كانت عزيزة جليلة ولكن مجيء جبريل يقتضي الواسطة، وإنزال الكتاب يدل على البعد، والمكالمة تنبئ عن الإشفيفية، والرشد الحقيقي من الله للعبد هو أن يجعله قابلا لفيض نور الله بلا واسطة، وذلك يتجلى جماله وجلاله الذي كان مطلوب موسى بقوله : أرني أنظر إليك فإن فيه رفع الإشفيفية وإثبات الوحدة، التي لا يسع العبد فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل.[(١)]

---

١) الشيخ إسماعيل البرسوي: روح البيان ٥/ ٢٧٤ ، ٢٧٥ ط دار الفكر.

وهذا التفسير لا يحتاج إلى تعليق، فكلام موسى عليه السلام لله تعالى وإنزال التوراة ووجود جبريل عليه السلام، كل ذلك لا يقنع الشيخ البرسوي، ويثبت أن موسى عليه السلام لم يقنع بكل ذلك، بل كان يبحث عن الوحدة التامة مع الله تعالى بدلا من الإشفيفية التي يعيشها في ظل الوحي وكلام الله تعالى.

## الإمام الفخر الرازي:

بعد أن تجاوب الإمام الفخر الرارزي من حجج القائلين بنبوة الخضر ورد عليها، جعل الحكمة من القصة هي تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى فقال: لما قرر العالم هذه الجوابات قال: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾، يعني إنما فعلت هذه الفعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى، لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى كما قررنا.(1)

والإمام الفخر الرازي يشير إشارة غير واضحة إلى التضحية من أجل صيانة المستقبل، فيقول : تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، إلا أنه وإن كان لم يبرز المستقبلية في القصة، فهو أفضل من غيره في فهمها على كل حال.

وسوف أسوق هنا هذه الآيات الكريمات مترابطة، لكي تعطي للقارئ صورة واضحة عن أَجَلِّ معانيها، وهو رعاية المستقبل والاهتمام به قال تعالى:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا

(1) الإمام الفخر الرازي ٢١/ ١٦٢.

لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى
لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ
لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ
أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى
مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ
نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا
فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ
قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ
أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا
فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾
أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ
أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن
يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ
لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ،

سورة الكهف- من الآية ٦٥- ٨٢

وبالنظر الدقيق إلى هذه الآيات يتجلى فيها أبرز معانيها وهو رعاية المستقبل، وقد تكون هناك معان أخرى، إلا أن أبرزها وأتمها هو عناية الله تعالى بالمستقبل، وحسن التدبير له، أما كون الخضر لم يمت حتى الآن، أو دلالة الآيات على العلم اللدني أو تفوق العبد الصالح على النبي، أو رواية الخضر على أحد الصالحين صلاة على سيد المرسلين، أو كون هذا العبد نفسه هو الخضر أم لا، فكل هذه قضايا غير منتجة ولا تؤثر في حياة المسلمين، ولا تدفعهم إلى التقدم خطوة واحدة، أما حسن التدبير للمستقبل فهو المعنى الوحيد الذي يستقيم مع هيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وهو الذي يقوي الهمة، ويدفع الأمة إلى الرقي والازدهار .

## الموقف الرابع:

وقبل أن نغادر سورة الكهف نعرج على صورة أخرى للعناية بالمستقبل، فقد مكَّن الله تعالى لذي القرنين وآتاه من كل شيء سببا، حتى إذا بلغ بين السدين وجد أناسا مستضعفين في الأرض، يعانون من إفساد يأجوج ومأجوج، وكان من الممكن أن يقضي عليهم ذو القرنين بحملته العسكرية الجبارة، ولكن ذلك كان يُعْتَبر قضاء مرحليا (تكتيكيا) لأنهم سيتفرقون في الجبال ثم يتجمعون ويتشكلون ويعاودون الهجوم والإفساد مرة أخرى، ولذلك قرر ذو القرنين أن ينشئ لهم السد الذي طلبوه وهو بالصورة التي بني بها عملٌ مستقبليٌّ (استراتيجيٌّ) خالص، لانه منعهم من الوصول إلى القوم المستضعفين حاضرا ومستقبلا قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ

نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي
خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ
عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا
﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي
حَقّٗا﴾ سورة الكهف، الآيات ٩٣- ٩٨.

يُلَاحظ أن ذا القرنين حين طُلِب منه بناء السد لم يلجأ إلى الحل الوقتي (التكتيكي) ويدمر ما يستطيع من يأجوج ومأجوج، ولم يلجأ إلى سفسطة علم الكلام، ويقول لهم إن كان ذلك مقدر فهو واقع بكم لا محالة، وهل هو مكتوب عليكم أم لا؟ وهل أنتم تتبعون المعتزلة أم الأشاعرة؟

لم يفعل من كل ذلك شيئا ولكنه اتجه مباشرة إلى الفعل والعمل الذي ينسجم مع الفطرة ويوازي دوران عجلة الحياة، بل يعبد لها الطريق لتدور في يسر وسهولة، اتجه إلى تأمين المستقبل والتدبير له.

## رأي بعض المفسرين:

وسوف نستأنس برأي بعض المفسرين في هذه القضية لنرى إلى أي مدى يوجد الفكر المستقبلي عندهم أو لا يوجد، وتكون هذه تتمة مناسبة للموقف الرابع.

## رأي الإمام ابن كثير:

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات، يقول تعالى مخبرا عن ذي القرنين ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ) أي سلك طريقا من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين

وهما جبلان متناوحان بينهما نقرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فسادا، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين أن الله تعالى يقول:

(يا آدم: فيقول لبيك وسعديك، فيقول ابعث بعث النار، فيقول وما بعث النار؟، فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فقال إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج..

وقد حكى النووي في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خُلِقوا من مني من آدم فاختلط بالتراب فخُلِقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليس من حواء وهذا قول غريب جدا لا دليل عليه.(١)

ويستمر الإمام ابن كثير في رد الروايات الباطلة، وموازنة الروايات الأخرى الراجحة لكنه لا يلتفت إلى فكرة المستقبل الموجودة في هذا السياق ويروي كيف أن أحد الخلفاء أرسل حملة عسكرية للتعرف على هذا المكان، وعادت الحملة بعد سنتين لتروى للخليفة العجائب، وهكذا يسير تفسير النص عند ابن كثير، أما العبرة من النص فلا تقع لها على أثر.

## الإمام الزمخشري:

يأجوج ومأجوج: اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وقُرِئا مهموزين، وقُرِئا رؤية: آجوج ومأجوج، وهما من ولد يافث، وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج

١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٠٣، ١٠٤.

من الجبل والديلم مفسدون في الأرض. قيل كانوا يأكلون الناس، وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئا أخضر إلا أكلوه، ولا يابسا إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلا وأذى شديدا، وعن النبي ﷺ في صفتهم «لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح» قيل هم على صنفين: طوال مفرطو الطول، وقصار مفرطو القصر... ورُوي يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله تعالى نغفا(١) في أقفائهم فيدخل في آذانهم فيموتون.(٢)

والإمام الزمخشري كسابقه الإمام ابن كثير، لم يلتفت إلى رعاية المستقبل في الآيات، بل اهتم بنسب يأجوج ومأجوج، وطولهم وعرضهم، وما كانوا يفعلون بالناس ثم اكتشف في النهاية أنهم إذا فتحوا السد انطلقوا على الناس فلم يصلوا إلى مكة والمدينة وبيت المقدس، ولا أدري ما الذي يمنعهم من ذلك، والعلم عند الإمام الزمخشري لأنه صاحب هذا الاكتشاف الكبير.

## رأي صاحب الظلال:

يقول: وبعد فمن هم يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان أمرهم ، وماذا سيكون؟ كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن الكريم، وفي بعض الأثر الصحيح.

١) النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، المعجم الوسيط، ٢/ ٩٣٧١ ط مجمع اللغة العربية ١٩٨٠.

٢) الإمام الزمخشري، الكشاف ٢/ ٤٩٩، ٥٠٠ ط الحلبي ١٩٧٢م.

والقرآن الكريم يذكر في هذا الموضوع ما حكاه من قول ذي القرنين: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴾. وهذا النص لا يحدد زمانا، ووعد الله تعالى بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاءهم منذ هجم التتار وانساحوا في الأرض ودمروا الممالك تدميرا، وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثوري، عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت ابي سفيان عن أمها حبيبة عن زينب بنبت جحش قالت: استيفظ الرسول ﷺ من نومه وهو محمر الوجه، وهو يقول: ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بإصبعيه السبابة والإبهام: قلت: يارسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم: إذا كثر الخبث.

وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن، وقد وقعت غارات التتار بعدها، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد «هولاكو» في خلافة «المعتصم» آخر ملوك العباسيين، وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول ﷺ وعلم ذلك عند الله تعالى وكل ما نقوله ترجيح لا يقين.[١]

والأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى وإن كان يبتعد بقدر المستطاع عن الأسلوب التقليدي في تفسير القرآن الكريم، إلا أنه ركز على خروج يأجوج ومأجوج على الناس، وهل ذلك حدث أم لا؟ ولم يتنبه إلى هذا العمل المستقبلي الاستراتيجي الذي قام به ذو القرنين.

وهنا يتضح اختفاء فكر الاستقبال من تفسير القرآن الكريم عند القدماء والمحدثين على السواء ولهذا أسباب كثيرة، سنورد بعضها في ثنايا هذه الدراسة بإذن الله تعالى.

١) الأستاذ سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٢٩٤، ٢٢٩٥.

## الموقف الخامس:

دخل نبي الله تعالى يوسف بن يعقوب عليه السلام السجن وقضى بضع سنين وهو بريء لم يرتكب إثما ولا جرما، ورَأى الملك في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر يابسات. وذهبوا إلى نبي الله يوسف في السجن وطلبوا منه تأويل الرؤيا التي رآها الملك، فأولها لهم بسبع سنين كثيرة الثمار، وسبع مجدبة، وعاما كثير الثمر يأتي بعد هذه الأعوام.

ولم يقف يوسف عليه السلام عند حد التأويل، بل وضع خطة يستغرق تنفيذها خمسة عشر عاما، وبعد أن خرج من السجن وقابل الملك، أعطاه الملك فرصة تطبيق خطته والإشراف عليها، وبالفعل نجحت الخطة نجاحا عظيما.

والذين يقفون عند نجاح هذه الخطة في هذه السنين فقط، لا يعقلون فهم القرآن الكريم، ولا تقدير الأعمال المخططة (الاستراتيجية) لأنها تؤثر كثيرا في حياة الشعوب، ولا أغالي إن قلت إن مصر عاشت من يوم أن أقام فيها يوسف المخازن التي تحفظ الغلال وإلى عهد قريب، وهي تطبق هذه الخطة.

وكانت مصر تصدر القمح وكثيرا من أنواع الحبوب إلى جهات كثيرة من العالم، ولكنها عادت إلى الفترة السابقة على وجود يوسف عليه السلام من الجدب والجوع، حين أعرضت عن التخطيط للمستقبل وعاشت حاضرا بلا أمل يسعى إليه وأملا بلا حاضر يرتكز عليه.

بقى أن نقول إنه في هذا الزمن الذي خلت فيه ساحة الفكر الإسلامي من الفكر المستقبلي، لو عُرضت هذه المشكلة على أحد المتحدثين في الإسلام كما عُرضت على يوسف عليه السلام، لردد على أسماع الناس: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، و﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾. من غير أن يفطن إلى معاني هذه الآيات، ومن غير ربطها بسياقها، وربطها بخلافة الإنسان في الأرض، وتحمله مسئولية تنفيذ مشروع الله تعالى في الكون، ولسوف يعتبر غفلته هذه إيمانا ولسوف يأمر الناس بالتوكل على الله تعالى، وترك المستقبل لله تعالى.

وسوف أسوق هنا هذه الآيات من سورة يوسف- عليه السلام- ونترك الآيات تشرح بنفسها المشكلة، وكيف عالجها يوسف عليه السلام علاجا مستقبليا مفيدا للحاضرين، وللذين يأتون من بعدهم، وكيف حوَّل مصر إلى مزرعة العالم في أوقات من التاريخ الإنساني، الذي يلي فترة يوسف عليه السلام.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ

إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ
قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا
مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى
عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى
ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ
أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة يوسف، الآيات من ٤٣- ٥٦).

نعود مرة أخرى إلى بعض السادة المفسرين لنرى وجود الفكر المستقبلي في تفاسيرهم.

## الإمام القرطبي:

يقول: فيه مسألتان: الأولى: قوله تعالى ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسرها له، فقال: السبع من البقرات السمان، والسنبلات الخضر سبع سنين مخصبات، أما البقر العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات ، فذلك قوله تزرعون سبع سنين دأبا، أي متوالية متتابعة.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ قيل: لئلا يتسوس وليكون أبقى، وهكذا الأمر في ديار مصر ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة وهذا القول منه أمر، والأول خبر، ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا ، وإن كان الأظهر منه الخبر، فيكون معنى تزرعون أي ازرعوا.

الثانية: هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله تعالى ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه ولا استحقاق، وهذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين.(١)

وفي تفسير الإمام القرطبي السابق بعض النقاط التي تخدم فكرة الاستقبال في القرآن الكريم، ووعي طيب بمقصود الشريعة، فهو يقول عن الآية التي تخص (استراتيجية القمح في مصر): هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، وهذا يدل على وعيه رضي الله عنه بمقصد الشريعة العام، فكل ما يتضمن أمرا من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة.

ويقول: ولا خلاف أن مقصود الشرائع (هو) إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل، والإمام القرطبي يعبر عن المستقبلية في هذه الآيات ويمزجها مزجا بمقصد الشريعة العام، لأنه بدون التخطيط ومراعاة المستقبل لا تقوم دنيا، ولا يبقى دين، أما الذين ينظرون إلى التخطيط للمستقبل على أنه نقص في الثقة بالله تعالى، فهؤلاء بعيدون جدا عن فهم منهج الإسلام، ومشروع الكون وتطور الحياة، وهو فكر يسعد العدو، ويحزن الصديق، ولعل من المنطق أن نطلق على هذا الفكر، أنه فكر الغياب.

---

١) الإمام القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٠٢، ٢٠٣.

## رأي الأستاذ سيد قطب:

يقول: ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المجرد، إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه وهذا أكمل، قال: تزرعون سبع سنين دأبا، أي متوالية متتابعة وهي السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ﴾ أي فاتركوه في سنابله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ فجردوه من سنابله واحتفظوا بالباقي للسنوات الأخرى المجدبة، المرموز لها بالبقرات العجاف.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ لا زرع فيهن.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ وكانت هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يُقدم لها لشدة نهمها وجوعها.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي إلا قليلا مما تحفظونه وتصونونه من التهامها.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، أي ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدبة، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب، تنقضي ويعقبها عام رخاء يُغَاث الناس فيه بالزرع والماء وتنمو كرومهم فيعصرونها خمرا، وينمو سمسمهم وخسهم وزيتونهم فيعصرونه زيتا.[1]

١) الأستاذ سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٩٩٣، ١٩٩٤.

تحدث الأستاذ سيد قطب– رحمه الله تعالى– عن تفاصيل الخطة، ولكنه لم يُوَفق كما وُفِق الإمام القرطبي، رحمه الله تعالى في ربطها بالفكر المستقبلي ثم ربط الفكر المستقبلي بمقاصد الشريعة العامة، وهي تحقيق مصالح الناس في دنياهم والعمل على تطوير الحياة .

## الموقف السادس:

خرج نبي الله تعالى موسى عليه السلام من مصر خوفا على حياته، بعد أن قتل أحد المصريين، في تشابك نشأ بين المصري واليهودي، ونَصَر موسى عليه السلام اليهودي، وقتل المصري من غير قصد لقتله. وعند ذلك خرج من المدينة هاربا بعد أن أخبره رجل جاء إليه يسعى بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه.

وعندما توجه إلى مدين، وورد ماءها وجد عليه أناسا كثيرين يسقون ووجد خلفهم امرأتين تمنعان إبلهما وغنمهما من السقي، ولما سألهما عن سر ذلك المنع قالتا: لا نسقي حتى يسقي الرعاة ويتركون الماء، والذي دفعنا إلى ذلك أن أبانا شيخ كبير، فعز عليه أن يكون سبب تأخير سقياهما هو مزاحمة الرجال، فسقى لهما، ولم يسألهما أجرا على ذلك بل انصرف صامتا، وشكر الله سبحانه وتعالى على ما رزقه من خير، وأكد في شكره أنه مازال فقيرا ومحتاجا للمزيد من عطاء الله سبحانه وتعالى، ولما رجعت البنتان وأخبرتا أباهما بما حدث شكر الله تعالى على ذلك ثم قالت إحدى البنتين، وكانت قد أدركت بفراستها أنه غريب وفي حاجة إلى من يستأجره.

- ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾ فإنه أفضل من تستأجر قوة وأمانة، فأرسلها إليه وجاءته وأخبرته بما أُرْسلت له وذهب معها إلى أبيها، والتقيا لقاء الأتقياء

الأوفياء، وعرض عليه الأب أن يزوجه بنتا من بناته مقابل أن يعمل عنده ثماني سنوات ﴿ ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ﴾، ثم طلب منه أن يتم العشرة تكرما، ولكن موسى عليه السلام لم يعط موافقته على زيادة عامين على الثمانية، بل قال له: إن قضيت ثمانٍ فقط قضيت ولا شيء عليّ وإن قضيت عشرا فقد قضيت، أي أنه أعلن الموافقة على الالتزام بالثمانية والموافقة مع عدم الالتزام على العامين التاسع والعاشر. وفي هذا النص تلاحظ ما يلي:

أ) إن الرجل الصالح وموسى عليه السلام اتفقا على خطة يستغرق تطبيقها ثمان أو عشر سنوات ولم يطعن ذلك في دينهما.

ب) إن موسى عليه السلام لم يوافق ملتزما على العشر، رغم أنه كان في موقف مشحون بالعواطف المختلفة لأن وقت المؤمن ثمين جدا، وهو ثروته الحقيقية في الحياة.

ج) إن موسى عليه السلام – لم يرفض الزيادة رفضا قاطعا، وهذا لفرط أدبه وكياسته- لأن هذه الزيادة داخلة في صداق الزوجة، ورفضه الواضح كان سيسبب حرجا للوالد، لأنه هو الذي عرض عليه، والرفض يعني أن الزوجة لا تساوي أكثر من ثماني حجج، وهو يضر بشعور الوالد والزوجة على السواء، أضف إلى ذلك أنه سيظهر بخيلا، والنساء لا يحببن البخلاء.

د) إن الله تعالى أورد القصة في معرض الرضا عن تفاصيلها، ولم يعترض سبحانه وتعالى على شيء منها.

هـ) إنني أرجح أن موسى عليه السلام قضى الأجل الأقرب وهو الثماني سنوات، ثم أصبح حرًّا ثم قضى الزيادة، ثم توجه إلى مصر لتبدأ رسالته المباركة.

و) إن الله تعالى يرضى عن التخطيط للمستقبل ويباركه ويجعله داخلا في عقد شرعي عوضا عن الصداق.

**القصة في القرآن الكريم :**

﴿ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ
هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي
مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ
عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ
لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ
أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ
﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا
ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ
إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ
ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن
يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ
مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ
مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ
﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ
مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ

إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُۥ وَقَصَّ
عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾
قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ
ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ
أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ
ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ
ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ
ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾
(سورة القصص، الآيات ١٥- ٢٩).

وبعد هذه الملاحظات نعود معًا إلى التفاسير لنطلع على آراء بعض المفسرين حول هذه القصة وعناصر المستقبل فيها.

**الإمام ابن كثير:**

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾: أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثماني كفاية، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين، وقد استدل بهذه الآية لمذهب الأوزاعي، فيما إذا قال بعتك هذا بعشرة نقدا، أو بعشرين نسيئة، أنه يصح، ويختار المشتري بأيهما أخذه صح.. قال موسى

لصهره إن الأمر على ما قلت، من أنك استأجرتني على ثماني سنين فإذا أتممت عشرا فمن عندي، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾[1].

ويرى الإمام ابن كثير بعد ذلك أن موسى قضَى عشر سنوات واستدل على ذلك بأحاديث كلها مرسلة، ولم يفسر معنى (لام الأجل) هل هي للعهد أم للجنس؟

فإن كانت للجنس فهي للأجل الأول، وأجل واحد وليس أجلين، وإن كانت للعهد فالعهد الملزم بين الرجلين على أجل واحد. ولا أدري لماذا ترك العلامة ابن كثير توضيح معنى اللام في الأجل، وربما لأن ذلك كان سيناقض الفرضية التي وضعها، وهو قضاء العشر سنوات، أو يعارض بعض الأحاديث التي أوردها في تفسيره وهي أحاديث يجب الأخذ بها إن كانت صحيحة مُوَثَّقةً.

يقول : قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾ ، لَمَا فرغ شعيب من كلامه قرره موسى عليه السلام، وكرر معناه على جهة التوثيق في أن الشرط إنما وقع في ثماني حجج، وأيما استفهام منصوب بـ «قضيت» والأجلين مخفوض بإضافة «أي» إليها «وما» صفة للتأكيد وفيه معنى الشرط وجوابه «فلا عدوان» وأن «عدوان» منصوب «بلا».

وقال ابن كيسان «ما» في موضع خفض بإضافة «أي» إليها وهي نكرة و«الأجلين» بدل منها، وقرأ الحسن «أيما» بسكون الياء.

١) الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٨٥.

وقرأ ابن مسعود «أي الأجلين ما قضيت»، وقرأ الجمهور «عدوان» بضم العين، وأبو حيوة بكسرهات، والمعنى لا تبعة على ولا طلب في الزيادة عليه، والعدوان التجاوز في غير الواجب، والحجج السنون.[(١)]

يقرر الإمام القرطبي الخطة التي اتفق عليها العبد الصالح وموسى عليه السلام، ويؤكد أن موسى عليه السلام التزم التزاما واجبا بالثماني سنوات، واعتبر أنه إذا قضاها فلا يجب أن يُطالَب بغيرها، بل يترك هذا «الغي» لظروفه المستقبلية، وفي ظرف كهذا لو طُلب من رجل في هذه الأيام شرطٌ كهذا لوافق على الزيادة من غير احتراز، لأننا أصبحنا لا نهتم بالمستقبل ولا بالتخطيط والتدبير له من أي ناحية، وعلى أي وجه من الوجوه.

## رأي الأستاذ سيد قطب:

يقول: وقبل موسى العرض، وأمضى العقد في وضوح كذلك ودقة وأشهد الله: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها ولا للعتمة ولا للحياء، ومن ثم يقر موسى العرض، ويبرم العقد، على ما عرض الشيخ من الشروط، ثم يقرر هذا ويوضحه ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾، سواء قضيت ثماني سنوات أو أتممت عشرا فلا عدوان في تكاليف العمل، ولا عدوان في تحتيم العشر.

١) الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٢٧٩.

فالزيادة على الثمانية اختيار ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين، وكفى بالله وكيلا بين موسى- عليه السلام – هذا البيان تماشيا مع استقامة فطرته ووضوح شخصيته، وتَوْفية بواجب المتعاقدين، في الدقة والوضوح والبيان، وهو ينوي أن يوفي بأفضل الأجلين كما فعل، فقد رُوي أن رسول الله ﷺ أخبر أنه (قضى أكثرهما وأطيبهما). [١]

وتبدو عناصر الخطة المستقبلية التي اتفق عليها صاحب موسى معه واضحة بارزة عند صاحب الظلال، وركز- رحمه الله تعالى- على الدقة في الاتفاق، وتوثيق عناصر الاتفاق بالتكرار، وإشهاد الحق سبحانه وتعالى على هذا الاتفاق.

## الإمام الزمخشري:

يقول: «ذلك» مبتدأ و«بيني وبينك» خبره، وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب، يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه، وشارطتني عليه قائم بيننا جميعا لا نخرج كلانا عليه، لا أنا عمَا شرطت عليَ ولا أنت عما شرطت على نفسك.

ثم قال : أي أجل من الأجلين قضيت الذي هو العشر أو اقصرهما الذي هو الثمان ﴿ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ﴾، أي لا يعتدي على في طلب الزيادة عليه، فإن قلت تصور العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر فما معنى تعليق العدوان بهما؟

قلت معناه كما أي إن طُولبتُ بالزيادة على العشر كان عدوانا لا شك فيه، فذلك إن طُولبتُ بالزيادة على الثمان، أراد بذلك تقرير أمر الخيار، وأنه ثابت مستقر،

---

١) الأستاذ سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٩٩٣، ١٩٩٤.

وأن الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء وأما التتمة فموكولة إلى رأيي إن شئت أتيت بها، وإلا لم أُجبَر عليها.[1]

وبرأي الإمام الزمخشري ننتهي من الموقف السادس بعد أن ظهر أن المستقبلية كانت أساس بنيانه وأهم أركانه.

**الموقف السابع:**

يدور هذا الموقف حول موقف حالي يحتاط فيه للمستقبل وهذا ما يعني في لغة العسكريين- استغلال الموقف التكتيكي لصالح الموقف الاستراتيجي العام- فقد أمر الله سبحانه وتعالى- نبيه ﷺ أن يحارب فئة خارجة وأن يشدد عليها في قتال بعد، ويكون الهدف المرحلي (التكتيكي) هو تدمير هذه الفئة والهدف المستقبلي (الاستراتيجي) هو إظهار شوكة المسلمين وعزتهم للآخرين لتصبح العزة والغلبة علامة من علامات المسلمين، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾. (سورة الأنفال- الآية ٥٧).

والآية تتحدث عن رؤية مستقبلية شاملة تستغرق مئات السنين، بل الآلاف في السنين، فقد ظل يُنظَر للجيش الإسلامي على أنه الغالب دائما حتى ذهبت شوكة المسلمين في العصر الحديث.

١) الإمام الزمخشري، الكشاف ٣/ ١٧٣، ١٧٤.

## رأي ابن كثير:

يقول الإمام «ابن كثير» في تفسير هذه الآية ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾، أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أي نكل بهم.

قال ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك والسدي، وعطاء الخراساني، وابن عيينة: ومعناه: غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلا ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ قال السدي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيُصْنعَ بهم مثل ذلك.(١)

في الفقرة السابقة وقف الإمام ابن كثير- رحمه الله تعالى- على المعنى المستقبلي العظيم في الآية الكريمة، وقد نقل إجماعا عن الأوائل الذين عاشوا هذه المعاني العظيمة وتعاملوا بها واضحة جلية.

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير هذه الآية ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾: وإنه لتعبير عجيب يرسم صورة للأخذ المفزع، والهول المرعب، الذي يكتفي السماع به للهرب والشرود فما بال من يحل به هذا العذاب الرهيب؟ إنها الضربة المروعة يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد، وانطلقوا من ضوابط الإنسان، ليؤمن المعسكر الإسلامي أولا، وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيرا، وليمنع كائنا من كان أن يجرؤ على التفكير في الوقوف في وجه المد الإسلامي من قريب أو من بعيد.

---

١) الإمام ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٢٠.

إنها طبيعة هذا المنهج، الذي يجب أن تستقر صورتها في قلوب العصبة المسلمة، إن هذا الدين لا بد له من هيمنة، ولا بد له من قوة، ولا بد له من سطوة، ولا بد له من الرعب الذي يزلزل الطواغيت حتى لا تقف للمد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير الإنسان في «الأرض» من كل طاغوت. والذين يتصورون أن منهج هذا الدين هو مجرد الدعوة والتبليغ في وجه العقبات المادية من قوى الطاغوت هم أناس لا يعرفون شيئا عن طبيعة هذا الدين.(١)

وبعد هذه الفقرة من ظلال القرآن، نكتفي برأي كل من الإمام ابن كثير، والأستاذ سيد قطب في تفسير الفكر المستقبلي في الآية الكريمة، لأنهما معا نقلا صورة واضحة لما في الآيات الكريمة من قواعد للعمل المستقبلي، والحقيقة أن هذه الآية فرضت نفسها على المفسرين بموضوعها في علاج فكرة المستقبل، ولذلك لم يكتنف الغموض تفسيرها كما حدث للآيات السابقة.

## المستقبل الأخروي في القرآن الكريم:

### الموقف الأول:

يتفوق الفكر المستقبلي في القرآن الكريم على غيره من فكر البشر، في أنه يقف بالمستقبل عند الحياة، بل ينتقل بالفكر المستقبلي في القرآن من التخطيط للحياة إلى التخطيط لما بعد الموت بفترات طويلة لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى، وإليك هذه الصورة التي تنتقل من العمل الدنيوي، بعد أن جعلته قاعدة للحياة الأخروية، أي جعل الآخرة مستقبلية (استراتيجية) للعمل الدنيوي فيقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ

ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا
﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا
صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا
زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم
بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾
۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا
رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ
وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ
لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ (سورة الإنسان، الآيات ٧- ٢٢).

في الآيات السابقة (استراتيجية) كاملة تشمل الحياة والموت، وهي تبدأ بخوف المؤمنين من يوم كان شره مستطيرا، ثم تبين لنا الخطوات العملية (التكتيكية) التي اتخذوها للوصول إلى الأمن في هذا اليوم، ثم ترسم لنا بدقة وبطء كل ما سيحدث لهم نتيجة أعمالهم التي قاموا بها من أجل تأمين مستقبلهم الأخروي، وكيف جاءت النتيجة كما يرجون، ووفق ما يخططون.

ولن نعدم رجلا من المستقعرين في علم الكلام، يقول لنا إنهم دخلوا الجنة بفضل الله تعالى ولم يدخلوها بأعمالهم وبخططهم، ونحن لا نعترض على ذلك، بل نقول إنهم عملوا بفضل الله تعالى ودخلوا الجنة بفضل الله تعالى، وفضل الله تعالى يشمل كل المخلوقات لكن من يعمل في إطاره تختلف نتيجة عمله عمن يعمل بعيدا عنه.

وبذلك يكون هؤلاء الناس قد خططوا ووصلوا إلى ما خططوا له، كما تحدثنا الآيات، ودخولهم بعملهم أو بفضل الله تعالى مشكلة كلامية، المهم لدينا أنهم دخلوا الجنة ونجوا من شر يوم القيامة كما تمنوا وعملوا لذلك، وسوف نترك المتكلمين عاكفين على مواقفهم الفلسفية وندعو الأمة كلها للعمل الـمُخَطط والتخطيط للحياة ولما بعد الحياة.

**الموقف الثاني:**

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ
حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا
دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا
حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ
عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ
ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ
إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (من سورة الحاقة- الآيات من
١٨- ٣٧).

في هذه الآيات الكريمة موقف لرجلين: أحدهما أدخل المستقبل البعيد في حسابه وعمل له، فترتبت نجاته على هذا الموقف المستقبلي المحسوب، والآخر عاش في الدنيا يوما بيوم، كالسائمة من الحيوان، فكان جزاؤه غضب الله سبحانه وتعالى ومقته.

وإذا نظرنا إلى الآيات الكريمة الأولى بإمعان، نلاحظ أن النجاة تأسست فيها على الوعي بالمستقبل عند من ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، فهو يعرض كتابه على الناس في زهو وفرح بالغين، ويقول إن سبب سعادتي جاء من وعيي بالمستقبل وعملي لهذا المستقبل، ويتضح ذلك في قوله ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾، ثم تأتي بعد ذلك العيشة الراضية والجنة العالية والقطوف الدانية والحياة الأبدية السعيدة، كل ذلك جزاء على التخطيط الجيد للمستقبل البعيد.

ثم يعرض لنا القرآن الكريم الوجه الآخر للصورة؛ صورة الإنسان الذي لا يفكر إلا في وقته المعاشي، ولا يَنْظُر إلى المستقبل البعيد أو القريب، وهي صورة مروعة تتخلع منها القلوب وتقشعر منها الأبدان، حتى يصرخ صاحبها ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾، أي يتمنى أن موته كان موتا أبديا لا قيام منها، هنا تتلاشى عظمة الإنسان ويسقط دوره وتنعكس مهمته في الحياة، ويصيح في حيرة قاتلة وخيبة ماثلة، كيف عمل ضد نفسه كل هذه السنون، وكيف تغافل عن المستقبل وهو آت لا ريب فيه؟

ولماذا لم ينظر إلى الحكمة التي من أجلها خُلِق، والمهمة التي كُلِفَّ بها بعد خلقه؟

## الموقف الثالث:

وهذا الموقف يدور حول صديقين كانت لهما جلسات ومحاورات حول: هل من الواجب العمل للمستقبل البعيد؟ أم أن ذلك لا يجب وأن هذا المستقبل هراء وخواء؟

وينقلنا القرآن الكريم إلى الدار الآخرة، وقد ترتب فيها السبب على مسببه، وأصبح صاحب الوعي المستقبلي فائزا ناجيًا، وصاحب اللهو واللعب خائبا

هالكًا، يقول الله تعالى وهو يعرض لهذا الموقف ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ (من سورة الصافات، الآيات ٤٠ - ٦١).

تتبلور رعاية المستقبل في هذه الآيات على أنها مسألة حتمية تتعلق بمصير الإنسان في الدنيا والآخرة، ودائما هناك فريقان، فريق يرى أن رعاية المستقبل بالتخطيط والعمل هي النجاة وهي التي تنسجم مع فطرة الإنسان، وفريق آخر يرى أن المستقبل بعد الموت خيالات وأوهام، ولا يبقى عند هذا الاعتقاد ساكنا بل ينطلق مهاجما أصحاب الفكر المستقبلي، ويقول لأحد أصدقائه: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾.

فهو يسخر من عقيدة صاحب الفكر المستقبلي والوعي المستقبلي، ولأن المستقبل غيب وليس للإنسان فيه إلا ما خطط وعمل له فإن صاحب الفكر الآني يظل يردد هذه العبارات المستندة على الواقع المعاش، حتى يقترب من التأثير على صديقه.

وعندما يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، فإن ذلك الحوار البعيد لا ينفك يدور برأس صاحب الجنة، ولذلك يسأل ربه سبحانه وتعالى عن صديقه صاحب الحجة الآنية، وماذا حدث له؟ فيقول له انظر في النار تجد صديقك، فينظر في النار وتتجسد قمة المأساة في خطابه لصديقه وهو في النار: ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾.

يعني بقوله هذا: لو طاوعتك في لهوك وغفلتك وفكرك الآني، لكنت الآن مثلك أتلظى بالنار، وأُطْعَم من الزقوم، ثم يكرر له عبارته السابقة: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، ثم يقول له إن ما أنا فيه الآن من نعيم لهو الفوز العظيم.

ثم يعقب الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾، أي أن تأمين المستقبل البعيد والقريب يجب أن يكون غاية يعمل العاملون من أجلها، وتلاحظ هنا لفظتي «يعمل، والعاملون» أي أن المستقبل يحتاج إلى عمل يتصف صاحبه بالعامل، وكأن هذه الصفة غلبت على كل صفاته الأخرى، ولو أخذت آيات القرآن الكريم من هذا المنظور لفتحت لنا كنوزا من المعاني التي تضيء الطريق وتهدي إلى الصراط المستقيم.

## الموقف الرابع:

في هذا الموقف يتوازى المستقبل القريب والمستقبل البعيد، ويتضح أنه ليس هناك مستقبل أخروي لمن ليس له مستقبل دنيوي، بمعنى أن الذي يفشل في التخطيط للدنيا ولتحقيق خلافة الله تعالى في الأرض، ينسحب عليه الفشل في مستقبله الأخروي.

ويتضح أن المستقبل ثروة بالنسبة للمسلم، وأن هذه الثروة تتآكل بمرور الأيام، ولا يمكن استرجاعها بعد ذلك مهما حدث، بل إن من يطلب ذلك لا يُوَاجه إلا بالسخرية والاحتقار، قال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ
صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ
يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا
يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ
(١٠٢) وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي
جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (١٠٣) تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ (١٠٤)
أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُواْ رَبَّنَا
غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا
فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)
إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا
وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي
وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ
هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (١١١) قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢)
قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا
قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا
وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ (من سورة المؤمنون- الآيات ٩٩- ١١٥).

وهذه الآية الكريمة الأخيرة توضح أن الإنسان مخلوق لهدف وغاية، وله بداية ونهاية، وأنه بين بدايته ونهايته له هدف، ولذلك يسأل الحق تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾،

فالله تعالى يمنح الإنسان عمره، تفضلا منه تعالى، وينظر كيف يعمل في هذا العمر، وكيف يستثمر وقته، وكيف يخطط لذلك.

الفصل الثانى

# الفِكر المُستقبليّ في السُنَة الشريفة

بعد أن رأينا أن للفكر المستقبلي ما له من التأصيل والثبات في القرآن الكريم، نطوف بالسُنَة النبوية الشريفة، فهي التي ينتقل فيها المثل من الحيز النظري إلى الواقع العملي. وإذا كانت نصوص القرآن الكريم تحتمل التأويل الذي يؤدي بها إلى التعطيل في بعض الأحيان، فإن المستقبلية في السنة الشريفة لا تحتمل التأويل، لأنها أحداث وقعت وتركت آثارها في التاريخ البشري. ولسوف نرى كيف أن النبي ﷺ أولى عناية خاصة بالتخطيط للمستقبل، لدرجة جعلته يتفوق على واضعي الخطط أو الاستراتيجيات الذين جاءوا من بعده رغم بساطة الوسائل التي جادت بها الظروف في جزيرة العرب وقتها.

وإذا كانت الاستراتيجيات العسكرية هي وضع هدف نهائي لأي صراع عسكري ومحاولة الوصول إليه بمجموعة من الأهداف والخطط التكتيكية، فإننا سنرى أن النبي كان يخطط لهدفه العسكري ولمجموعة لا تُحْصَى من أهداف السلم وبناء الحضارة الإسلامية العظيمة. وسوف أسوق هنا بعض النماذج التي يتضح من خلالها عبقرية الإسلام المستقبلية من خلال تطبيق النبي ﷺ لها، وهي كما يلي:

## بيعة العقبة الأولى:

لا بد من التنويه إلى أن تربية النبي ﷺ للمسلمين في بيت الأرقم بن أبي الأرقم كانت مرتكزا مستقبليا (استراتيجيا).(١)

١) في بيت الأرقم بن أبي الأرقم، وفي ليل الصحراء الهادئ تم تكوين أعظم القادة في التاريخ من خلال مخاطبة الفطرة، والنظر إلى الحقائق نظرة مجردة بعيدة عن أي ملابسات، وإذا نظرنا إلى ما حدث في بيت الأرقم نظرة استراتيجية حديثة لقلنا إنها تشبه معاهد إعداد القادة المدنيين، أو معاهد أركان حرب العسكريين، أو المعاهد الاستراتيجية في العالم الحديث.

ولكننا اخترنا بيعة العقبة الأولى كأول خطوة واضحة من ناحية البناء التاريخي للحدث، بمعنى أنها كانت فعل شيء في الزمان الحاضر ليترتب عليه أشياء في الزمان القادم أو المستقبل.

ضاقت مكة برسول الله ﷺ وبالمسلمين من أصحابه بعد أن تنبه المِكيون إلى أن هذه الدعوة – إن لم يستجيبوا لها – سوف تأتي عليهم في يوم من الأيام. ولذلك استماتوا في مقاومة الدعوى إلى أقصى مدى يتخيله العقل البشري، ووضعوا في وجهها العراقيل التي تعمل على وقف تدفقها في البلاد وفي قلوب العباد. وكان لا بد من البحث عن أرض جديدة للدعوة لتقوم فيها دولتها ويتحدد فيها نظامها ويتكون فيها جيشها، حتى تصل هذه الدولة إلى المقدرة على رد العدوان وإقامة دولة ووضع نظام خاص لها وتكوين جيش لها. كل ذلك لا يتم في أرض الغير، ولا في أرض تُؤَجر من أصحابها. وكانت هذه هي المشكلة المستقبلية[١] الأولى التي واجهت النبي ﷺ وكان لا بد من ضم أهل هذه الأرض إلى نفس الدين الذي ستقوم عليه الدولة عندهم ومن ثم بدأ رسول الله ﷺ في عرض نفسه على القبائل في موسم الحج لكي يدرس أهم المواقع وأقرب القبائل للاستجابة للدين الجديد.

## يقول ابن هشام:

«قال ابن اسحاق: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا.

١) اتخاذ مكان جديد للصراع يُسَمى عند علماء الاستراتيجية العسكرية الحصول على (العمق التعبوي) للصراع، وإذا تم إقامة النظام الجديد في هذا المكان تحول إلى (عمق استراتيجي)، أي أصبح قاعدة انطلاق دائمة في الصراع، وهذا ما حدث لمدينة رسول الله ﷺ.

قال ابن اسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم؟ قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهودا كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا من أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غروهم [(١)] ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله تعالى. قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله أنه النبي الذي توعدتكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا، فلقوه بالعقبة قال: وهي العقبة الأولى فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء[(٢)] وذلك قبل أن تُفْرَض عليهم الحرب.

---

٢) غروهم: غلبوهم- المعجم الوسيط.

١) جاءت بيعة النساء- في القرآن الكريم- في قوله تعالى: (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا)- من سورة الممتحنة- الآية ١٢.

وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى: على ألا نُشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف.

فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك فأخذتم بحده في الدنيا وكفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة أمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر.

## مصعب بن عمير:

فلمّا انصرف القوم عائدين إلى المدينة، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين فكان يُسَمى المقرئ بالمدينة.(١)

قدمت فيما سبق ما نقله ابن هشام حول بيعة العقبة الأولى، وقد نقلته بتفاصيله حتى نقف على بداية التخطيط العظيم للحصول على مكان آخر (عمق استراتيجي) للدعوة الإسلامية، تنشئ فيه دولتها وتحقق فيه عزتها وتنشر فيه دين الله تعالى الواحد الأحد، حتى تتسع دائرة المعتنقين لهذا الدين، ثم تعود الدعوة إلى مكة ظافرة قاهرة.

لا شك أن كل هذه الأفكار، كانت واضحة عند رسول الله ﷺ وسوف تزداد هذه الخطة عند القارئ بعد أن يتفهم الخطة في بيعة العقبة الثانية لأنها كانت بيعة على الحرب، وسوف نرى أن كل الموجودين في مكان البيعة كانوا يعون المستقبل جيدا بتفاصيله الدقيقة، ويحتاطون لكل ما يستجد من الأمور.

---

١) سيرة بن هشام ٢/ ٥٦-٥٨.

## بيعة العقبة الثانية:

يروي ابن هشام خبر البيعة الثانية يقول: قال ابن اسحاق: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة، من أوسط أيام التشريق، حين أراد الله النصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله .

حدّث كعب بن مالك قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء لنا: يا هؤلاء إني قد رأيت رأيا فوالله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا؟ قال: قلنا: وما ذاك ، قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية مني بظهر- يعني الكعبة- وأن أصلي إليها. قال فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ صلى إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه، قال: إني لمصل إليها، قال: فقلنا له: لكنا لا نفعل. قال فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الكعبة حتى قدمنا مكة. قال: وقد كنا عبنا عليه ما صنع وأبي إلا الإقامة على ذلك، فلما قدمنا مكة، قال لي: يا بن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله قد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم إياي فيه. قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ.[1]

وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك. فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ، فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا لا، قال: فهل تعرفان العباس ابن عبد المطلب عمه؟

١) أنقل لك هذا النص قبل البيعة لكي تشعر بالجو النفسي السابق عليها وكيف قدم هذان الرجلان مسلمين من غير أن يريا رسول الله ﷺ.

قال: قلنا نعم- قال كنا نعرف العباس وكان لا يزال يقدم علينا تاجرا، قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ الشاعر؟ قال: نعم ، قال: فقال له البراء بن معرور: يا نبي الله إني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله تعالى للإسلام، فرأيت ألا أجعل هذه البنية مني بظهر، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يارسول الله؟

قال: كنت على قبلة لو صبرت عليها قال فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ وصلى معنا إلى الشام قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات .

قال كعب بن مالك: ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق قال: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، فقلنا له وإنما نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا.(١)

ثم دعوناه إلى الاسلام ، وأخبرناه بالموعد مع رسول الله ﷺ فأسلم وشهد معنا العقبة، قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا.

---

١) انظر إلى الوعي المستقبلي، إنه يتكلم عن الآخرة باعتبار على أنها الغد، والمسلم ينظر إلى المستقبلية بوعي على أنها خطوات متتابعة.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه[١] ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يامعشر الخزرج- وكانت العرب تسمى هذا الحي الخزرج- خزرجها وأوسها- أما محمد منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال فقلنا له: قد سمعنا ما قلت: فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده فقال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا.[٢]

فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر، فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم ابن التيهان ، فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا: يعني اليهود، وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا.[٣] قال: فتبسم

---

١) من الآن فصاعدا سيتكشف الوعي المستقبلي والاتفاق على التفاصيل، وجدير بالذكر أن تلك البيعة جاءت بعد الأمر بالقتال- إذن هي البيعة على استراتيجية الحرب وسوف تأتي التفاصيل فتؤيد ذلك.

٢) العرب تكني عن المرأة بالإزار، وعن النفس كذلك.

٣) كما نظر العباس إلى المستقبل البعيد وأخذ العهد عليهم، نظر أبو الهيثم كذلك إلى المستقبل وأراد أن يستوثق من رسول الله ﷺ. ومن هذه النصوص يتضح الوعي المستقبلي عند الجميع: الرسول ﷺ والمشرك على حد سواء.

رسول الله ﷺ ثم قال بل: الدم الدم، والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

وحدث عاصم بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. (١)

فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلى أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

ثم قال رسول الله ﷺ ارفضوا إلى رحالكم. قال: فقال له العباس بن عبادة: والله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا.

قال فقال رسول الله ﷺ: لم تؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم، قال: فرجعنا إلى رحالنا فنمنا عليها حتى أصبحنا .

قال: فلما أصبحنا غدت علينا جلة من قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وأنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن

---

١) يتضح من هذا النص فهم العباس بن عبادة للاستراتيجية الكاملة للهجرة ووعيه الكامل بالمستقبل، وليست المسألة هروبًا بالدين كما فهم الكثير من العلماء.

تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. قال فانبعث من هناك من مشركي قريش قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه قال: وقد صدقوا لم يعلموه قال: وبعضنا ينظر لبعض قال: ثم قام القوم.

قال: ونفر الناس من منى، فتنطس القوم الخبر فوجوده قد كان، وخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيبا. فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا بديه إلى عنقه بنسع رحله».[١]

ثم أقبلوا حتى إذا أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير فهتف باسم رجلين في مكة كان يجير لهما في المدينة- يعني ينزلان في جواره إذا جاء إلى المدينة فأطلقاه.[٢]

## التعليق

التعليق على هذا النص يتلخص في عدة نقاط: منها ما يلي:

١) رأينا فيما سبق كيف خطط رسول الله ﷺ للمستقبل.[٣]

وكيف احتاط لهذا التخطيط، فهو في البداية أخذ البيعة على الأنصار في العقبة الأولى، وكانت تعتبر بحق بيعة الأساس، لأنها قامت على الدين، وكانت هذه

١) النسع: الشراك الذي يربط به الرحل.
٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٦١- ٦٨، مكتبة الكليات الأزهرية.
٣) ورغم ثقة رسول الله ﷺ لحماية ربه له، فهذا لم يمنعه من أن يأخذ الاحتياط البشري الذي يملكه. «منير الغضبان: المنهج الحركي للسنة- ص ١٨٩ طبعة رابعة ١٩٨٩، مكتبة المنار- ويقول عن خروجه ﷺ في الهجرة: لكن الله- تعالى- حرس نبيه ﷺ لا بمعجزة ولكن بعالم الأسباب في تخطيط البشر. ص ١٨٩م.

بداية طيبة من ناحية الهدف العام وهو نشر الدعوة الإسلامية لأنه لا بد من العقيدة أولا. ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الدفاع عنها، وكلما كانت العقيدة مؤسسة في نفس المعتقد، كلما كان دفاعه عنها قويا ونهائيا. وإرسال مصعب بن عمير إلى المدينة يؤكد الرؤية المستقبلية الممتدة عند رسول الله ﷺ لأنه أضاف الكثير من المؤمنين إلى أصحاب البيعة. وقد رأينا كيف جاء الصحابي الكبير البراء بن معرور وهو يتأول القبلة، وهذا يدل على أنه تعمق في الإيمان، وأن إرسال مصعب بن عمير -رضي الله عنه- كان خطوة مستقبلية مدروسة ومنتجة ولم يكن محض مصادفة كما يتصور البعض أو من باب الكرامة فقط كما يتصور البعض الآخر. إذن فذهاب مصعب بن عمير إلى المدينة حقق هدفه وأنشأ بيئة إسلامية وصنع مكانا مهيئا لاستقبال النبي ﷺ وبناء الدولة الجديدة، وهو ما يُطْلَق عليه في اصطلاح العسكريين (رأس كوبري) أو رأس حربة، أو بداية الزحف.

ب) جاءت بيعة العقبة الثانية لتنقلنا إلى أجواء المستقبل المُخَطط الذي لم يترك فيه للمصادقة شيء، ولكي نقف على صحة هذه الفرضية سوف نتناول بالتحليل رأي ثلاثة ممن حضروا بيعة العقبة الثانية وأُثبتوا من خلال مشاركتهم في البيعة أنهم على وعي كبير بمستقبلية (استراتيجية) البيعة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ وهؤلاء الثلاثة هم:

## العباس بن عبد المطلب:

خشي العباس أن يكون الاتفاق قد تم بين النبي ﷺ وبين الأنصار بدافع من الشعور العاطفي عند الأنصار، أو بدافع من اليأس من إسلام قريش عند رسول الله ﷺ ولذلك حاول أن يستوثق من الحضور جميعا فقال:

«يا معشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه[١] فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده».

إن من يحلل كلام العباس تحليلا مستقبليا يجد أنه كان يسير على خطوات مدروسة، وهو ينظر إلى المستقبل فهو يقول لهم، إن الرسول ﷺ الآن في منعة رغم اختلافه مع قومه ولكنه إذا خرج معكم وذهب إلى بلدكم سيكون غريبا بينكم.[٢]

فهل أنتم كافلون له الحماية كما هي مكفولة له بين قومه وأهله، إن كنتم قادرين على ذلك فبايعوه، وإن لم تقدروا على ذلك في المستقبل فاتركوه من الآن في منعته وعزه بين أهله. وكانت هذه الكلمات الصائبة هي التي دفعت الأنصار إلى قولهم لرسول الله ﷺ «خذ لنفسك ما شئت» أي ضع كل القواعد التي سنلتزم بها أمامك الآن، وستكون دستورا لتعاملنا فيما بعد. ولذلك قال لهم رسول الله ﷺ:

«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نِسَاءَكُمْ وأبناءكم»، فقال البراء بن معرور: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، وتمت البيعة على شرط المستقبل.

---

١) يقصد رغم أننا متفقون مع أعدائه في الرأي إلا أننا منعناه منهم.
٢) يلاحظ أن هذا الاتفاق كان قبل الهجرة الشريفة بكثير ولكنه الوعي المستقبلي الذي دونوه في تعاقدهم مع رسول الله ﷺ.

## أبو الهيثم بن التيهان:

نظر أبو الهيثم إلى خطوة بعيدة في المستقبل لأكثر من عشر سنوات، وأبعد من نظرة العباس المستقبلية. نظر لما بعد تطبيق هذا الاتفاق المستقبلي وانتصار النبي ﷺ: هل يعود إلى قومه ويترك المدينة وتكون الهجرة من هذه الزاوية خطوة أو هدفا مستقبليا (استراتيجيا) وهم- أي الأنصار- كانوا يأملون أن تكون الهجرة هدفا نهائيا، ففي المدينة سَتُقَام دولة الإسلام ونظام الإسلام، ومن المدينة سينتشر نور الله تعالى في أرضه، ولذلك قال أبو الهيثم: إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها يعني: اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

هنا نرى أن أبا الهيثم يستوثق من رسول الله ﷺ كما استوثق العباس من الأنصار. ويُلَاحظ أن أبا الهيثم لم يخرج من شخص رسول الله ﷺ ويمتنع عن أخذ الميثاق عليه، والسبب في ذلك أن هذا الأمر يتعلق بالمستقبل، والمستقبل كان عندهم مسألة حياة أو موت، والمستقبل والعمل له كان في فكرهم شيئا واحدا ثابتا، تدور حوله طبيعة الحياة، فإن أحسن تنظيمه وتخطيطه كانت الحياة فيه، أي في المستقبل طيبة كريمة، وإن أسيء تخطيط المستقبل كانت المشاكل وظهرت العقبات. ولو كان ما بين الرسول ﷺ وأبي الهيثم بن التيهان، أي شيء من المال أو المتاع فكنا لا نجد معارضة من أبي الهيثم ولكنه كان سيسلم تسليما، ولكن بالنسبة للمستقبل لابد من التخطيط والاتفاق، إنهم لم يكونوا علماء (للاستراتيجية) أو أساتذة في معاهدها، ولكن فكرهم المستقبلي كان واضحا في تفكيرهم وكلامهم، ولو رددنا الأشياء إلى أصولها، وابتعدنا عن زخرف القول، لخرجنا بصورة واضحة عن المستقبلية «الاستراتيجية» ولأصبحت قواعدها بارزة واضحة. ولكن البعض

من بني قومنا لا يفهمون التخطيط والتنظيم إلا إذا قِيل لهم إنه قادم من الغرب، ومن إفراز العلوم الحديثة.

**العباس بن عبادة:**

نظر العباس بن عبادة نظرة شاملة لكل الأحداث التي ستترتب على هذا الاتفاق المستقبلي «الاستراتيجي» بين النبي ﷺ وبين الأوس والخزرج، نظر إلى قتل الرجال والنساء والأولاد من الأنصار، ونظر إلى هلاك الأموال، وإلى تغير الحال وأراد أن يحتاط ويستوثق من الحضور وهم في بيعتهم، وأراد أن يضيء لهم المستقبل ويكشف لهم الأحداث[١] منطبقة على الواقع في ضوء المستقبل المنظور، فقال لهم:

«يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل، قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلى أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة، قالوا: أبسط يدك، فبسط يده فبايعوه».

من الأمور الدقيقة عند النظر للنص الذي نقله ابن هشام لبيعة العقبة الأولى والثانية وخاصة الثانية، أن معظم الحاضرين في مكان البيعة كانوا يملكون رؤية

١) ولم يضف توفيق الله- تعالى- لرسوله ﷺ ولا كرامة النبي رغم ذلك، ولكنه نظر للمستقبل مقاسا على منطقية الأحداث ومتابعة الواقع، ومما يرضي الله- تعالى- أن يحسب الإنسان حجم جهده وأبعاد دوره أولا- ثم يأتي بعد ذلك العون من السماء.

مستقبلية واضحة، وكان الواحد منهم يبدي رأيه بالنسبة للمستقبل، ويطلب الموافقة أو الرفض بالنسبة لأطروحاته المستقبلية، فإذا وافقوا طُلِب منهم البيعة على ما وافقوا عليه، وهذا ما حدث بعد قول العباس بن عبادة لما وافقوا بايعوا رسول الله ﷺ مرة ثانية، وهكذا في المرات السابقة حدث نفس الشيء.

ويُلَاحظ أن فكرة الدولة الإسلامية قد شخصت في فكرة العباس بن عبادة في بيعة العقبة الثانية وقبل الهجرة، ويُفْهَم هذا من تحذيره لقومه «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود»، معنى هذا أنه استقرأ الأحداث وفهم ما يرمي إليه النبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة وإعدادها لتكون مكانا للدولة الجديدة، أي فكرة رسول الله ﷺ المستقبلية، أو خطته في ذلك كانت واضحة عند العباس بن عبادة ورأي أن تلك الخطة ستنتهي إلى الدولة وستعمل هذه الدولة على نشر الدعوة الإسلامية في أرض الله تعالى، وسوف تتعرض هذه الدولة لقتال الأحمر والأسود.

لقد كانت بيعة العقبة الثانية مثالا مشرفا للفكر المستقبلي، يكشف عن جانب من عظمة النبي ﷺ، وما أحوج الأمة الإسلامية إلى التأسي بهذه السنة العظيمة في النظر إلى المستقبل وعدم إغفاله بحجة أنه بيد الله تعالى، وهل نحن أكثر إيمانا بالله تعالى من رسول الله ﷺ؟

الإجابة: لا، ومع ذلك كان يفكر في المستقبل البعيد وكان يدفعه الإيمان إلى ذلك، ولن تقوم لفرد أو لأمة قائمة وهي تغفل المستقبل ولا تفكر فيه ولا تعمل له، لأن المستقبل هو الخطوة التالية بعد الحاضر، والذين لا يبصرون موضع خطواتهم القادمة هم أجدر الناس بالتردي في أول حفرة تعترضهم.

ولقد جُنَّ جنون قريش- وهي تفهم المستقبل أيضا- حين علمت ببيعة العقبة الثانية، وكانت تقرأ الغيب مركوزا على هذه البيعة فتراه غيبا مدمرا لها ولمكانتها في جزيرة العرب، إذن هي كانت تعي المستقبلية وقيمة التخطيط لها، ولكن منعها الكبرياء والحقد من اللحاق بالركب الكريم.

وعن بيعة العقبة الأولى والثانية يقول ابن اسحاق: «كانت الأولى على بيعة النساء وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة».[١]

إذن فكلام العباس بن عبادة ضم للبيعة أو المعاهدة وسماها ابن اسحاق ببيعة الحرب، ويقول عبادة بن الصامت «بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب، إذن البيعة الثانية هي بيعة الحرب ويرى بعض العلماء أن « الاستراتيجية» تكون في «الحرب» وعلى رأيهم هذا تكون بيعة العقبة الثانية هي استراتيجية- حرب أي وضع خطة للوصول إلى هدف نهائي من خلال عدة صراعات مرحلية.

## ج- الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوادع اليهود- لتأمين الجبهة الداخلية:

ومع انتقال الرسول ﷺ وبعض أصحابه إلى المدينة، برزت مشكلة اليهود الذين يرون المستقبل بوضوح، ويعلمون أنهم لا بقاء لهم مع هذه الدولة الفتية التي تقوم على الحق والعدل والعفة والطهارة، وكلها صفات تقلل من نفوذ اليهود

---

١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٢.

وتحد من سيطرتهم على الناس. أضف إلى ذلك أنهم، ومن خلال الأحداث، تكونت لديهم صورة واضحة عن النبي ﷺ وعلموا أنهم لن يستطيعوا خداعه، وأن صناعة المكائد لن تجد رواجا في المدينة في عهدها الجديد.

واستطاع النبي ﷺ أن يحتويهم في معاهدة جديدة وادعهم فيها. [١] وأثبت لهم ما يحق لهم، وما يجب عليهم. يقول ابن هشام: قال ابن اسحاق:

«وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم، واشترط عليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي (ﷺ) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[١] بالمعروف، والقسط بين المؤمنين، وبني عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى[١] كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم

---

١) ليس معنى هذا أن النبي ﷺ كان يجهل نوايا اليهود الخبيثة، ولكن العهد الذي قطعه لهم يلزمهم في حال الخيانة، وأصبح هذا العهد دستورا في المدينة يحاسب عليه فرقاؤها وليس هذا في صالح اليهود، وهو في جميع الحالات يجنب الدولة الفتية الصراع وهي ما زالت في مرحلة التكوين، ويعطي الفرصة لليهود إن أرادوا العيش في أمن وسلام في جنبات الدولة الجديدة، وهي خطوة مستقبلية عظيمة أن يحافظ على جهد الدولة في مرحلة التكوين ولا يضيع قوتها في صراعات هامشية.

٢) عانبهم: أسيرهم – المعجم الوسيط.

٣) المعاقل: الديات: المعجم الوسيط.

الأولى كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه – وإن المؤمنين المتقين على من بغي منهم، أو ابتغي دسيعة ظلم[١] أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان والد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غازة غزت معنا يعقب بعضها بعضا وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه، وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا[١] عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد (ﷺ) وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين

١) الدسيعة: أي طلب دفعًا على سبيل الظلم فأضافه إليه، فالإضافة معنى من: تاج العروس.
٢) اعتبط: قُتِلَ بلا جناية.

وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[١] إلا نفسه – وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف وأن ليهود بني ساعدة مثل ليهود بني عوف وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلب مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[١] إلا نفسه – وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وإن البر دون الإثم وإن موالي ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد بإذن محمد (ﷺ) ولا ينحجز على ثار جرح وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته الا من ظلم وإن الله على أبر هذا وأن على اليهود نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثن وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وإن الجار كالنفس غير مضار، ولا آثم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد (ﷺ) وإن الله على أتقي ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ، الا من حارب في الدين علي كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل مالأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

١) يوتغ: يهلك.

قال ابن هشام: مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة- وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسبا إلا على نفسه وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله (ﷺ).[1]

إن قراءة هذه الصحيفة بفكر مستقبلي توضح أنها كانت دستورا لمدينة رسول الله ﷺ وأنها كانت خطوة مرحلية «تكتيكية» تنسجم تماما مع الهدف النهائي لقيام دولة الإسلام التي سيُنَاط بها نشر الدعوة الإسلامية وسيادة العالم بالحق والعدل والخير والجمال، وقد احتاط فيها رسول الله ﷺ لكل ما يمكن أن تأتي به الأيام أو يُسْتَجَد في الأمور، وتصور المدينة وهي تغرق في صراعات داخلية ووضع لذلك القواعد والخطط، وتصور المدينة وهي تجارب عدوا خارجيا، وجعلها كلها صفا واحدا في مواجهة. فعن الصراع الداخلي يقول:

«وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة، من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ».

وعن الصراع الخارجي يقول: «وإن بينهم النصر على من دهم يثرب».

وهكذا يتضح في كل الصحيفة الفكر المستقبلي العام ويبقى سؤال: هل وادع رسول الله ﷺ بهذه الصحيفة كما يرى ابن هشام، وكثير من المؤرخين القدامى؟

أرى أنه لم يوادعهم ولكنه وضع لهم قانونا ملزما، وفتح لهم طريقا للعيش بين المسلمين في ظل دولة الإسلام الناشئة، ولذلك لما غدروا فيما بعد تمت محاكمتهم

---

١) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨- ٩١ ط المكتبة التوفيقية.

على أساس هذه الصحيفة، ولذلك لم تكن موادعة بالمعنى العام الذي يجد فيه الخصم مطعنا ولكنها كانت سلاما وإلزاما.

## د) المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار هي الخطوة الرابعة من الخطوات المستقبلية الكبيرة التي قام بها رسول الله ﷺ، فبعد أن تمت له السيطرة على تفاعل العناصر العرقية والطبقية في المدينة من خلال المعاهدة السابقة، سيطر الإخاء على التفاعل داخل النفوس، وانصهر الجميع في بوتقة الإيمان وهم ينتظرون فجرهم الذي بدأ يلوح في الأفق.

يقول ابن هشام عن الإخاء في المدينة: قال ابن اسحاق:

وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال: فيما بلغنا: «تآخوا في الله أخوين أخوين»، ثم أخذ بيد علي بن ابي طالب، فقال: هذا أخي، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين، ورسول رب العالمين- الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد،[1] وعلي ابن أبي طالب- رضي الله عنه أخوين. وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسول الله ﷺ وعم رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين. وكان أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- وخارجة بن زهير أخوين، وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، والزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وقش أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر

١) الخطير: ذو الشرف والرفعة، عظيم الشأن.

أخوين، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين، وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبي بن كعب أخوين، ومصعب بن عمير بن هاشم وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعباد بن بشر بن وقش أخوين، وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين، وأبو ذر والمنذر بن عمرو أخوين، وبلال بن رباح وأبو رويحة أخوين، فهؤلاء من سُمّوا لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه.(١)

هذا الإخاء هو الذي دفع الجميع للتضحية بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى، وفي سبيل هذه العقيدة الجديدة التي لا تميز بين الناس على اعتبار العرق أو اللون وإنما ثبت فيها «أكرم الناس عند الله تعالى أتقاهم»، وهذا الإخاء كان يترتب عليه حقوق كثيرة. من هذه الحقوق قسمة الأموال بين المتآخين، وكان الإخاء يعني المساواة من جميع الزوايا الاجتماعية والمالية وخلافها وأكبر دليل على ذلك المؤاخاة بين حمزة عم رسول الله ﷺ وأسد الله تعالى، وزيد بن حارثة مولى (خادم) رسول الله ﷺ. كيف تم هذا؟

لا بد أن هذه النفوس تربت في بيت الأرقم على قيم ومثل جديدة، وهذه القيم، وهي من عوامل السيادة والغلبة، وهي من العوامل المستقبلية الاستراتيجية التي تم إعدادها مبكرا مع بزوغ فجر الإسلام وفي بيت الأرقم بن أبي الأرقم، لأن بناء دولة وتكوين أمة لا يتم إلا بإعداد الجيوش وإحكام الخطط، فقد ينفع هذا في معركة أو غزوة ولكنه لا يعمر طويلا لأنه بعد عودة الجيوش وانتهاء الصراع، تتصارع العوامل الطبقية من جديد، بعد أن كانت كامنة أثناء المعارك ثم شيئا

١) سيرة ابن هشام:٢/ ١٠٩-١١٠ ط مكتبة الكليات الأزهرية.

فشيئا تنهار قوة الدولة، ولا يستطيع الجيش الذي انتصر في الخارج أن ينتصر في الداخل، لكل ذلك كانت المؤاخاة بين المسلمين من مهاجرين وأنصار منهاجا مستقبليا يؤمن الأمة في صراعها مع الأعداء ويفرز لها قوى متجددة تمدها بالثبات في معاركها المتلاحقة.

## هـ- الآذان:

قد يثير العجب عند القارئ أن يكون الآذان ثمرة أولى من ثمار الاستراتيجية الدقيقة التي اتبعها رسول الله ﷺ، فهو ثمرة من ثمارها وهو في ذات الوقت خطوة محسوبة من خطواتها:

- فهو ثمرة لأن رسول الله ﷺ كان يتمنى أن يُرْفع الآذان في مكة ويقيم كل شعائر الإسلام هناك عند البيت العتيق، ولكن قامت في وجهه قوى الجهل والتخلف والوثنية، واستماتوا في مقاومة هذا الدين الجديد، حتى أصبح إعلان هذا الدين من أحد الأفراد نذيرا بإنهاء حياته. لابد هنا فكر رسول الله ﷺ في أمرين:

**الأول**، كيف يبلغ الرسالة؟[1]

**الثاني**: كيف يخضع سكان مكة نفسها لشرع الله تعالى ويحرر البيت من قبضة الكفر الحديدية؟ وكانت بيعة العقبة الأولى: للبحث عن مكان تقام عليه دولة الإسلام المخرجة للقيادة: «كنتم خير أمة أُخرِجت للناس»، والمُرَشَّحة للسيادة. وكانت بيعة العقبة الثانية: على الحرب لنصرة دين الله تعالى، ثم الميثاق أو الدستور الذي وضعه ﷺ للمدينة.

١) التبليغ هنا يعني بناء أمة جديدة تقيم شرع الله تعالى في أرضه، وليس معناه إلقاء الخطب والمواعظ- كما يفعل كثير من الدعاة الآن.

وابن اسحاق يروي خبر الآذان بفهم عميق لمجريات الأمور، ولأبعاد المستقبلية في المنهاج الإسلامي فيقول:

«فلما أطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار واستحكم أمر الإسلام، قامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام وتبوأ الاسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوؤوا الدار والإيمان».[١]

إذن وجدت الأرض التي يتحول عليها الإسلام من فرض نظري إلى واقع عملي. ومن هنا كان الأذان ثمرة من ثمار التخطيط المستقبلي في الإسلام، وهو خطوة من خطواتها:

والأذان خطوة من خطوات المستقبلية إنه شعار الأمة الحي، فلا بد أن تصارع الأمة وغيرها من أجل أن يكون الله أكبر من كل شئ، والله اكبر هو اللواء الذي سوف يسير تحته الجيش الإسلامي والأمة الإسلامية طوال العصور ثم إن الأذان هو شعار الصلاة وبناء المجتمع على الصلاة والطهارة يعني مستقبليا بناء أمة من الأشراف الأقوياء الذين يجعلون مرضاة الله تعالى فوق كل شئ.

والغلبة التي هدفها الدنيا تنطفئ جذوتها بسرعة لأن هدفها قريب ودنيوي، والغلبة التي هدفها أن يكون الله أكبر ودينه أكبر، وشرفه أكبر، وهذه الغلبة تدوم متجددة بدوام أمة الأذان أمة الصلاة أمة الزكاة، أمة فرض الحلال والحرام، وإقامة الحدود. وإذا كانت الصلاة في الأمة المهزومة تعني العبادة والترقي الروحي،

١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١١١.

فهي في الأمة المنتصرة تعني الوقود المتجدد لنشر دعوة الإسلام، وسيادة الإسلام على كل الشرائع، وسيادة المسلمين على كل الناس. لقد كانت الصلاة في المدينة في مسجد رسول الله ﷺ وخلف إمامته الشريفة، تعليما للغلبة في الحياة، ووصلا برب الحياة، ولم تكن الصلاة عندهم «أقوالا وأفعالا» كما هي عندنا الآن بل كان النظام والعاطفة في صف الصلاة، هما النظام والعاطفة في صف القتال، وكان العمل للآخرة عندهم يعني من باب أولى، العناية والعمل والتخطيط لما ينفع الناس ويطور الحياة، وكانوا يصلون ويزرعون ويقاتلون ويستنطقون أرض الله تعالى لتبوح بسرها المكنون، والذي يعطي لكل باحث مثابر، ويمنع عن كل متكاسل متكابر، من أجل كل ذلك كانت الصلاة خطوة من خطوات المستقبلية الإسلامية في مدينة رسول الله ﷺ.

## و- المستقبلية في تعسكر الجيش في بدر:

اختار رسول الله ﷺ مكانا في بدر ونزل عنده، ولكن هذا المكان لم يكن من الوجهة المستقبلية نافعا، وأشار عليه أحد الصحابة بمكان مستقبلي آخر، وعلى الفور وافق رسول الله ﷺ يقول ابن هشام:

فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم (القرشيين) إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يارسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فتنزله ثم تغور ما وراءه من القلب،

ثم تبني عليه حوضا فتملأه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأي، فنهض الرسول ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت [1] وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا في الآنية.. وقال سعد بن معاذ: يانبي الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نَلْقَى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير ثم بُنِي لرسول الله ﷺ عريشٌ- فكان فيه.[2]

في النص السابق أسس مستقبلية توضح تلازم الفكر المستقبلي مع سير الأمة الإسلامية منذ البداية وأنه كان هو الفكر الغالب، ويتضح ذلك من عدة وجوه:

١) إن رسول الله ﷺ كان هو قائد الجيش في غزوة بدر، وهو الذي يتلقى الوحي من ربه سبحانه وتعالى، وهو الذي تتعلق به أفئدة المسلمين، وهم مقبلون على إحدى الحسنيين. وكان يجب لكل هذه الاعتبارات أن يكون رأيه نافذا ونهائيا، فمن له بعد رسول الله ﷺ رأي. ونزل ﷺ بالناس عند أدنى ماء من بدر وترك أمامه كثيرا من آبار المدينة، وكان المفروض أن يكون هذا هو المنزل النهائي للقوم- رسول الله والذين معه.

١) قلب، جمع قليب: بئر قديم.

٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩١و ١٩٢.

٢) نظر الحباب بن المنذر لما سيحدث في المعركة ووازن بين الأماكن المختلفة ووجد أن المنزل الذي نزله الرسول ﷺ ليس بمنزل لأنه لا يدخل عنصر المياه- على أهميته في المعركة- ولكنه احتاط لنفسه وسأل الرسول إن كان هذا المنزل بوحي من الله تعالى، فالله يعلم غيب السموات والأرض وليس لنا مع أمره اختيار، وإن كان الله تعالى ترك لنا أن ندبر وندبر معركتنا. (١) ونخطط كيف نشاء وجمع ذلك في قوله: أم هو الرأي والحرب والمكيدة. وهنا أشار بتغيير المكان والانتقال إلى أقرب ماء من القوم ووافقه الرسول ﷺ على ذلك .

٣) إن الحباب بن المنذر خطط لمعركة إذا قامت ومعظم الآبار في جانب العدو، وحدث تقهقر من المسلمين بعيدا عن الماء في عرض الصحراء فإن المعركة عمليا تكون قد انتهت لصالح العدو مهما حدث بعد ذلك من نزال وقتال، ولو احتل المسلمون أماكن الآبار وغوروها وبنوا بئرا كبيرا يشربون منه فإنهم سيقاتلون عدوًّا لا يجد ماء يشربه في لظى الصحراء وكلما شدوا عليه ابتعد كثيرا عن الماء. وكل ذلك ترسمه الحباب في رأسه قبل أن يحدث بساعات طويلة في الواقع. ومسلم اليوم يقول لك إننا سنحارب لله تعالى ولنشر الإسلام والله يدبر لنا كل الأمور، وهي كلمات حق يُرَاد بها عدم التخطيط وبرهانه التكاسل والتواكل. لقد قامت المعركة في رأس الحباب قبل أن تقوم في الواقع وخطط لها وأقره النبي ﷺ على ذلك.

٤) لقد اعترض الحباب على المنزل الذي نزله الرسول ﷺ واختار منزلا آخر، وقد هداه إلى ذلك فكره الحر ورؤيته المستقبلية. والمرء يتحير حين يطالع ذلك ويرى كثيرا من العلماء يدركون أن في بعض ما قاله القدماء كلاما لا وزن له

١) لو قلت لمسلم في الوقت الحاضر - مظهرا التدين - اترك الأمر لله تعالى لأذعن متواكلا ولكن الصحابة كانوا يخططون ثم يتوكلون ولا يتواكلون.

ولا نفع فيه، ومع ذلك ينقلونه بخشوع عظيم ولا يعلقون عليه إلا بما يسوغه للناس، ولا يمنعهم عن نقده إلا أنه قد قاله القدماء، ويرى المرء كثيرا ممن يسمون أنفسهم بالمريدين في الطرق الصوفية إلى نقد مشايخهم سبيلا، وهم يرون منهم كثيرا من الأخطاء ولكنهم يؤولونها دائما تأويلا يخرجها عن الخطأ ويثبت الإلهام لصاحبها، ولو فعل الحباب بن المنذر كما يفعل هؤلاء المريدون لهلكت عصابة الإسلام الأولى واجْتُثَّت من أساسها.

٥) لم يقف الصحابة في وجه الحباب ويمنعونه عن الاعتراض، بل تُرك للتعبير عن رأيه بحرية تامة لأنهم رجال يحترمون الرأي الصحيح ولو كان مخالفا لما تصوروه صوابا ولما نظر إلى المستقبل وأقره النبي الكريم ﷺ على نظره لم يعترض أحد ولم يخرج برأي آخر يسفه فيه رأي الحباب ولو من باب الحسد والكيد لمستقبلية الحباب. لم يحدث هذا أبدا رغم أنها مسألة حياة ومصير.

## رأي سعد بن معاذ:

يتسم رأي سعد بن معاذ بالمستقبلية البعيدة في الزمان والمكان على السواء، فهو لم يفكر في جو المعركة أو الأيام التي ستستغرقها كما فعل الحباب بن المنذر، ولكنه نظر في سيرة الدعوة الإسلامية تنساح في أرض الله تعالى في الزمان البعيد الذي لا يُحد إلا بالقرون. ورأى أن ذخيرة الإسلام ووقوده وهو قلبه وفؤاده ورأى أن هذا المرتكز لو سقط فلن تقوم للدعوة الإسلامية قائمة لأن الإسلام لم يكتمل بعد، ورأى أن رسول الله ﷺ هو قوة المسلمين الأولى الرئيسية، وأن الذي يضحي بقوته الرئيسية في أول معركة يكسبها أو يخسرها فإنه من الناحية المرحلية والمستقبلية (التكتيكية والاستراتيجية لا يكون مصيبا في تخطيطه ولا محددا الهدف النهائي، ووجد أن بقاء الرسول ﷺ مع فناء هذه العصابة المسلمة

في بدر، هو بقاء للإسلام على المدى القريب، ثم وجد أنه ﷺ مصمم على أن يتبوأ مكانة في الصفوف الأولى من الجيش ولم يكن ذلك صوابا عند سعد بن معاذ فعرض رأيه على رسول الله ﷺ هكذا:

يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه [١] ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركابك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه. [٢]

أدرك سعد بن معاذ أن الرسول ﷺ يُعتبر هدفا نهائيا (استراتيجيا) للمسلمين لأنهم ما زالوا في حاجة إليه لبناء أمة الإسلام العظيمة، وبالنسبة للعدو من المشركين لأنهم يريدون بقتله القضاء على هذه الأمة الفتية، ومن هنا كان حرصه على حياة رسول الله ﷺ ووضح له كيف يتخلص من المعركة في حالة الهزيمة ليستمر في بناء الأمة، وإعداد العدة لمقابلة المشركين في معركة أخرى.

والجدير بالملاحظة أن الرأيين الاستراتيجيين في معركة بدر، رأي الحباب بن المنذر «السيطرة على الماء»، ورأي سعد بن معاذ «الحفاظ على هدف الأمة النهائي

١) عريشا: مكان للقيادة خلف الجيش وهو ما عليه عمل الجيوش فى الحرب حتى الآن.
٢) سبق نظيره.

في ذلك الوقت»، هذان الرأيان لم يأتيا عن طريق الوحي المباشر، أو غير المباشر، كالإلهام مثلا، إنما كانا رأيين بشريين عاديين.[1]

وكان هذا درسا لنا لنعلم أن على الإنسان أن يفكر بنفسه كيف يتفوق في الحياة، يخطط ويدبر والله تعالى يساعده بعد ذلك. كما يجدر بالملاحظة موافقة رسول الله ﷺ المباشرة والمشفوعة بالثناء والدعاء بالخير للذين يفكرون في المستقبل ويخططون له، وهي ملاحظة لو تعمقنا في فهم مراميها لتغير حالنا الآن، فبين ظهرانينا أناس يعتبرون التفكير في المستقبل ضعف إيمان وعدم ثقة بقدرة الله تعالى، ويعتبرون الغيب لله تعالى ويتحرجون من أي تفكير فيه وشعارهم المعروف: (لا تدبر لك أمرا إن أولي التدبير هلكى)، وما زال يتردد هذا القول حتى أصبح يشبه العقيدة الثابتة عند هؤلاء، ولعل موقف الحباب بن المنذر وسعد بن معاذ في بدر أكبر رد على هؤلاء ومن ينهج نهجهم في الحياة.

### دعاء رسول الله ﷺ بالنصر في بدر:

في هذا الدعاء نظرة ثاقبة للمستقبل البعيد، فقد أعد الرسول ﷺ أصحابه أحسن إعداد وجعلهم مرتكزات الإسلام المستقبلية، وحشد أغلبهم وأقوى عناصرهم في بدر ورآهم- كما رأوه من قبل- هدفا استراتيجيا للإسلام، ورأى في هلاكهم هلاكا لهذه الدعوة، وركز في دعائه على هذه النقطة بالذات، فقال ﷺ:

«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبَد».

---

١) ما أحوجنا إلى أن ندرك واجبنا في الإعداد لمواجهة العدو رغم اعتمادنا الأول والأخير على الله – تعالى – لا أن نحيل تقصيرنا وضعفنا وتهاوننا على القدر، ونبكي على عدم نصر الله تعالى لنا، ونحن المسئولون عن ذلك – منير محمد الغضبان – المنهج الحركي للسنة النبوية ص ١٨٩ ط مكتبة المنار ١٩٨٩م. طبعة رابعة.

وهذا الدعاء ليس قابلا للتأويل، فألفاظه واضحة ومعانيه أوضح من ألفاظه، وهو يقال لمن يعلم السر وأخفى ويعلم الماضي، والحاضر، والمستقبل، إذن فهو يقول لربه: هذه ذخيرتي وعدتي لبناء أمة الإسلام، وإن تهلكها فلن تُعْبَد بعد ذلك لأنها الرسالة الخاتمة والأمة التي ارتضى الله تعالى أن تكون خير أمة أُخْرِجَت للناس.

الفصل الثالث

# المُسْتَقْبَلِيّة عند صحابة رسول الله ﷺ

عند دراسة المستقبلية الاستراتيجية عند المسلمين بعد رسول الله ﷺ تبرز الفترة التي عاشها صحابته- رضوان الله عليهم- وكيف حملوا لواء الاسلام، واندفعوا يجوبون العالم شرقا وغربا ويخططون في نفس الوقت لمستقبل الإسلام، ويضعون الأسس القوية لذلك.

وفضل الصحابة وفكرهم المستقبلي لا يمكن أن يُحصَى عن طريق هذه الدراسة التي ترتكز على الخطوط العامة للمستقبلية عند المسلمين. ولذلك ستتجه الدراسة إلى دراسة المستقبلية عند الخلفاء الراشدين، ومن خلالها سوف تبرز صورة المستقبلية واضحة بعد رسول الله ﷺ، وسوف يتضح لنا أنها ليست نهجا زمنيا ولكنها سلوك إسلامي تتحقق من خلاله رسالة الإسلام في الإرشاد والهداية، ورسالة الإنسان في الخلافة والعمارة.

## ١-أبو بكر الصديق، رضي الله عنه:

عندما تولى الخلافة واجه عدة مشاكل تصفها السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها بقولها: «لما تُوُفِّى رسول الله ﷺ اشرأب النفاق وارتدت العرب، وانحازت الأنصار فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها، فما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بفنائها وفضلها».[١]

هذه الكلمات على قلتها وإيجازها توضح الحالة العامة التي كانت عليها جماعة المسلمين عند تولي أبي بكر الصديق- رضي الله تعالى عنه- ولكنه مع هذا نجده قد

١) الإمام السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص ٧٣- ط مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٢م.

تصدى لكل مشكلة وعالجها في ضوء الرؤية المستقبلية وربط بينها برباط المستقبلية المدروس، فغير مشكلة الارتداد، كانت هناك مشكلة إنفاذ جيش «أسامة» الذي أمر بإنفاذه رسول الله ﷺ، وسنبدأ بهذه المشكلة لنرى كيف كانت تُدَار دولة الإسلام بوعي مستقبلي «استراتيجي» جعلها تتفوق على خصومها، وتثبت أقدامها في الأرض بعد فترة وجيزة من انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

## إنفاذ جيش أسامة:

جهَز رسول الله ﷺ جيشا وجعل قيادته لأسامة بن زيد، للتوجه إلى الشام، ثم تُوُفِّي ﷺ وجيش أسامة خارج المدينة ينتظر الأمر بالتحرك إلى مبتغاه.

ونترك لابن الأثير تصوير الجو العام للمدينة وللصحابة، وكيف كان خلافهم على الرؤية المستقبلية، وكيف كانت رؤية أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، هي التي تؤسس للمستقبل بميزان دقيق، يقول ابن الأثير:

فتُوُفِّي النبي ﷺ ولم يسر الجيش، وارتدت العرب إما عامة أو خاصة من كل قبيلة، وظهر النفاق واشرأبت اليهود والنصرانية وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة، لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم. فقال الناس لأبي بكر: إن هؤلاء- يعنون جيش أسامة- جند المسلمين - والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي ﷺ، فخطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو، وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة لمعسكره بالجرف، فخرجوا كما أمرهم، وجيش أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم، فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل.

فلما خرج الجيش إلى معسكرهم بالجرف وتكاملوا، أرسل أسامة عمر ابن الخطاب وكان معه في جيشه إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس، وقال:

«إن معي وجوه الناس وحدهم، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ والمسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقال من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب: إن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة». فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فأخبره بما قال أسامة فقال: لو خطفتني الكلاب والذئاب أنفذنه كما أمر به رسول الله ﷺ، ولا أرد قضاء قضى به ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته». قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: فإن الأنصار تطلب رجلا أقدم سنا من أسامة؟ فوثب أبو بكر، وكان جالسا، وأخذ بلحية عمر وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله.

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم، وأشخصهم وشيعهم وهو ماشٍ وأسامة راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن- فقال: والله لا نزلت ولا أركب، وما عليّ إلا أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله سبحانه وتعالى فإنه للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكْتَب له وسبعمائة درجة تَرْفع له وسبعمائة سيئة تُمْحَى عنه.

فلما أراد أن يرجع قال لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأَذِنَ له، ثم وصاهم (أبو بكر) فقال:

لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا

شاة ولا بقرة ولا بعيرا (إلا لمأكلة)، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله سبحانه وتعالى.

وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ فسار وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التي ارتدت وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين يوما، وقيل سبعين يوما.(١)

## التحليل المستقبلي للنص:

بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى وارتداد العرب، أصبح المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة، كما يصفهم ابن الأثير، وأشار بعض الصحابة على أبي بكر- رضي الله تعالى عنه- بعدم إنفاذ جيش أسامة ورده إلى داخل المدينة. وكانت رؤيتهم مستقبلية ولكنها غير صحيحة، فقد كانوا يرون أن التدهور في أحوال العرب بعد وفاة النبي ﷺ لا يُؤْمَن معه إرسال هذا الجيش وترك المدينة من غير حراسة كافية وأن قوة المسلمين يجب أن تكون في تماسكهم وقوة جبهتهم الداخلية، وهي نظرية (استراتيجية) لها مكانتها في الفكر العسكري. وكانوا يرون أيضا أن إنفاذ هذا الجيش وفيه خيرة الجند والقواد هو تفريغ لقوة الدولة متمثلة في عاصمتها مدينة الرسول ﷺ وهذا ما يُسَمَّى في العصر الحديث بنقل الاحتياطي «الاستراتيجي» ودفعه إلى الأمام، وكثيرا ما أدى هذا إلى التفاف العدو وتمكنه من فتح الثغرات في الداخل.(٢)

---

١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ٢/ ٣٣٤- ٣٣٥، دار صادر بيروت ١٩٦٥م.

٢) يشبه هذا إلى حد كبير ما حدث فى حرب ١٩٧٣ عندما عبرت القوات المُكَلفة بالحراسة من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية للقناة وأعطى هذا للعدو الفرصة لكى يفتح الثغرة ويتسلل منها إلى خلف القوات المسلحة المصرية.

وشارك أسامة نفسه في هذا التوجه، إذ أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس لأن معه وجوه الناس وحدهم وأنه يخشى على الخليفة وعلى حرم رسول الله ﷺ. ولكن أبا بكر رفض هذا وذاك لأنه كان يعرف كيف يسد الثغرة التي يعولون عليها، وهي خلو المدينة من القوات التي تحميها، وذلك بالتجنيد والتدريب والاستعداد وهذا أمر يملكه الخليفة.

وكان الرأي المستقبلي الراجع عند أبي بكر هو أنه مع ارتداد العرب، واضطراب الأمور، فلا بد من إظهار قوة الدولة ورهبتها لأن الدولة بلا قوة مُظْهَرة لا تستطيع أن تسيطر على هذا التدهور العام وهذا ما استقر عليه الفكر «الاستراتيجي» الحديث وهو مبدأ «الهجوم خير وسيلة للدفاع».

وقد عُرف هذا المبدأ بأنه «مبدأ نابليون»، إلا أن القرآن الكريم الذي يغترف أبو بكر الصديق رضي الله عنه من نبعه الصافي سبق كل أصحاب الفكر العسكري «الاستراتيجي» ووضع هذا المبدأ وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنفال ٥٦- ٥٧).

فالآية تقول: طالما أن هناك قوما لا يحترمون العهود فإن ضربهم بشدة سوف يخيف أمثالهم ويمنع كثيرا من القتال، وهذا هو ما ذهب إليه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وكان لانفاذ هذا الجيش أثر بالغ في مستقبل المسلمين وإحكام سيطرتهم على جزيرة العرب كنقطة انطلاق نحو تكوين أمة الإسلام وسيطرتها على العالم المعمور، ولقد لاحظ ابن الأثير هذا البعد «الاستراتيجي» في فكر القائد أبي بكر، ولذلك عقب على هذا النص بقوله:

«وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعا للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه». [١]

وهذا تحليل دقيق للمؤرخ المسلم ابن الأثير، ويجب أن يُكتب التاريخ ويُقرأ على هذا النحو، ولقد أدرك الجميع بعد إنفاذ جيش أسامة ما لهذه النظرية من بعد في الزمان وشرف في المكان وعلو في المكانة.

والأثر الثاني لنظرة سيدنا أبي بكر المستقبلية، هو أنه بخروج كل القوات لملاقاة العدو في جيش أسامة وشعور سكان المدينة بالخوف من اضطراب العرب، فإن هذا الشعور بالخوف سيدفع قطاعات كبيرة من الشباب والشيوخ إلى سد هذه الثغرة في أمن المدينة. ومن هنا سيتكون تلقائيا جيش ثان، يملك نفس العقيدة ونفس الأمل في نشر دعوة الإسلام، وهي نظرة مستقبلية صائبة في كل أهدافها المرحلية والمستقبلية على السواء.

**الخلاف على سن القائد:**

وكان اعتراض من الأنصار على سن القائد أسامة بن زيد وأن يغيره بمن هو أقدم منه سنًا، ونقل ذلك سيدنا عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- إلى سيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه- فقال له: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله»!!

ولكن يبقى سؤال:

- هل رفض أبو بكر رضي الله تعالى عنه عزل أسامة لأن رسول الله ﷺ استعمله؟

---

١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٣٣٦.

## وهل هذا هو السبب؟

نعم: هذا هو السبب الظاهر، ولكن وراء هذا السبب سر يكشفه إصرار النبي ﷺ وإصرار أبي بكر على قيادة أسامة، وهذا السر والله تعالى أعلم هو شباب أسامة وحداثة سنه، لأن الشباب هو المستقبل، والأمة وقتها كانت متطلعة إلى المستقبل بكل كيانها، فهو يمثل المستقبل وينفذ خطة لتأمين مستقبل الإسلام.

وهذا التقليد الكريم لو أُتيح له التطبيق في بلاد الإسلام في العصور التالية لأنتج تقدما كبيرا في كل المجالات، ولكن ما حدث في عصور الانحسار هو غلق الباب في وجه الشباب بحجة أنهم لا يملكون الخبرة الكافية، وجعل العلم والمعرفة والقيادة حكرا على الشيوخ، وهذا النظام يدحضه إنفاذ جيش أسامة بن زيد، وهذا الفكر ليس إسلاميا- وإن ارتدى عباءة الإسلام- لأن إعطاء القيادة للشباب يفتح الأمل لهم في المستقبل ويبذلون كل جهد نحوه، والشباب بتكوينه يميل إلى الاقتحام والمجازفة وهما من عناصر التفوق الأولية.

## تكريم العسكرية الإسلامية:

العسكرية الإسلامية هي التي رسخت سلطان الدولة في جزيرة العرب، ونشر سلطانها خارجها، ومع انتشار سلطان دولة الإسلام العادل انتشرت في ظله عقيدة الإسلام السمحة ولذلك أرسى لوداع جيش أسامة بن زيد، وهو ماشٍ على قدميه. وعن ذلك يقول ابن الأثير:

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم وهو ماش، وأسامة راكب: فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن: فقال: والله لا نزلت ولا أركب، وما عليّ لا أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله.

وهذا رفع لشأن الجهاد وبناء للعزة في نفس القائد الشاب حتى يستطيع أن يقود ويغزو باسم الله تعالى.[1]

## تحطيم إرادة العدو والمحافظة على أخلاقيات الإسلام:

ليس معنى «الاستراتيجية» العسكرية إبادة العدو من المحاربين وغيرهم، ولكنها تتجلى في تحطيم إرادة العدو، والجيش الإسلامي لم يكن هدفه تدمير الحياة بل تطهير الحياة، ولذلك كان لا بد من أن يحارب هذا الجيش، ومع ذلك يترك أثرا يظهر شرف المقصد وطهارة المسلك وتكون هذه هي «المستقبلية» التي ستساعد على السيطرة والانتشار. ويتضح ذلك من قول أبي بكر- رضي الله تعالى عنه لجيش أسامة:

«لاتخونوا، ولا تغدروا ولا تغلو ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا او تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بقوم قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقا. اندفعوا باسم الله سبحانه وتعالى».

فقتال المسلمين ليس لغرض الدين، وإنما هو للتخلية بين الناس، وبين عقيدة التوحيد الصحيحة، ولذلك أمرهم بأن يتركوا المتعبدين في صوامعهم فدعوهم

١) لم يعد لهذه التقاليد العزيزة وجود في كثير من المجتمعات الإسلامية، بل أصبح القائد الأعلى درجة لا يرضى ممن هو دونه بأقل من المهانة والصغار حتى يرضى عنه ويعتبره مواليا له، وقد تفشى هذا في كثير من القيادات العسكرية والمدنية على حد سواء، حتى وصل إلى المؤسسات الدينية نفسها التي يُعْتَبَر التواضع شعارها الوحيد.

وما فرغوا أنفسهم له. ولكنه أمرهم أن يخفقوا رؤوس أولئك المستعدين للقتال بوضع العصائب فوق الرؤوس، وفي هذا النص ترى أن سيدنا أبا بكر يوطئ للإسلام مستقبلا كبيرا بهذه الأخلاقيات التي تراعي وقت الحرب ونزال العدو، ومن هنا كان إنفاذ جيش أسامة من أوله لآخره فكرا مستقبليا ثاقبا.

## ٢-حرب الردة:

كانت حروب الردة هي المشكلة الثانية التي واجهت سيدنا أبا بكر الصديق، ولم تكن مشكلة هينة كما يتصور البعض بل كانت تشبه انهيارا شديدا لنظام دولة الإسلام التي أسسها الرسول، ولكن هيهات فقد ترك ﷺ وراءه من يحمل منهجه ويسير به منهج التخطيط والرؤية البعيدة التي تتجاوز الزمان والمكان.

وتلك الرؤية المستقبلية لأبي بكر الصديق هي التي أنقذت المسلمين مما حل بهم من فتن سوف نطلع عليها بعد قليل. وقد كان رأي البعض القعود عن قتال المرتدين ولكنهم كانوا يجهلون ما يترتب على ذلك من قضاء على دولة الإسلام.

قال عبد الله بن مسعود: لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن الله تعالى مَنّ علينا بأبي بكر، أجمعنا على ألا نقاتل ابنة مخاض، وابنة لبون، وأن نأكل قرى عربية، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين. فعزم الله تعالى لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية. فأما الخطة المخزية بأن يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قُتِل منا في الجنة، وأن يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذوا منا مردود علينا وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم.[١]

١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٣٤٢.

في هذه الفقرة يبين لنا سيدنا عبد الله بن مسعود، رأيا كان سائدا عند البعض وهو القعود والتقوى ليقوم الرحمن بمهمة الإنسان، ولو ترك سيدنا أبو بكر الأمر للناس لتم القضاء على الأمة الإسلامية في بكورها، ولكنه نظر إلى المستقبل البعيد ورأى إعمال السيف في الناس حتى يفيئوا إلى أمر الله تعالى ويُذْعنوا لأحكام الإسلام ونظام الدولة الجديدة. ولذلك عرض عليهم الخطة المخزية أو الحرب المجلية، فلا مهادنة مع الذين ذاقوا حلاوة الإيمان ثم عادوا إلى مرتكس الكفر الأسن. لقد ظهرت الأحقاد على الإسلام بعد موت النبي ﷺ وأصبحت جزيرة العرب في اضطرام واحتدام.

## أخبار الردة:

يقول ابن الأثير: لما مات النبي ﷺ وسيّر أبو بكر جيش أسامة ارتدت العرب وتضرمت الأرض نارا، وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشا وثقيفا واستغلظ أمر مسيلمة وطليحة واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد، وارتدت غطفان تبعا لعيينة بن حصين فإنه قال: نبي من الحليفين يعني: أسد وغطفان، أحب إلينا من نبي من قريش، وقد مات محمد وطليحة حي فأتبعه وتعقبه غطفان، وقدمت رسل النبي ﷺ من اليمامة وأسد وغيرهما وقد مات النبي ﷺ فدفعوا كتبهم لأبي بكر وأخبروه الخبر عن مسيلمة وطليحة فقال: لا تبرحوا حتى تجئ رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم، فكان كذلك، وقدمت كتب أمراء النبي ﷺ من كل مكان بانتقاض العرب عامة وخاصة وتسلطهم على المسلمين.(1)

لقد تجيشت الجيوش بسرعة فائقة بعد وفاة النبي ﷺ وأخذت مواقعها للانقضاض على الاسلام، ولو سمع سيدنا أبو بكر من نظر إلى اللحظة الآنية،

1) المصدر السابق ص ٣٤٢- ٣٤٣.

ولم ينظر إلى المستقبل لانقض هؤلاء المرتدون على دولة الإسلام وأفنوها تماما. فقد «مات رسول الله ﷺ واجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة، إلا ما كان من خواص أقوام في القبائل الثلاث فاجتمعت أسد بسميراء وفزارة ويليهم غطفان بجنوب طيبة، وطيء على حدود أرضهم، واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعبس بالبرق من الربذة، وتأهب إليهم ناس من بني كنانة فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين فأقامت فرقة منهم بالأبرق وسارت الأخرى إلى ذي القصة من بني أسد ومن تأهب إليهم من ليث والديل ومدلج. وكان على مرة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان وعلى ثعلبة وعبس الحارس بن فلان، وقد بعثوا وفودا فقدموا المدينة فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم ما خلا عباسا فتحملوا بهم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وعلى ألا يؤتوا الزكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحق، وقال: لو منعوني عقالا- حبلا- لجاهدتهم عليه. وكانت عقل الصدقة على أهل الصدفة مع الصدقة فردهم، فرجع وفد من يلي المدينة من المرتدة إليهم فأخبروا عشائرهم بقلة من أهل المدينة، وأطمعوهم فيها، وجعل أبو بكر- بعد ما خرج الوفد- على أنقاب المدينة نفرًا، وعليًا، والزبير، وطلحة، وعبدالله بن مسعود، وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد، وقال لهم: إن الأرض كافرة- أي مظلمة- وقد رأى وفدهم منكم قلة وأنكم لا تدرون أليلا تُؤْتَون أم نهارا، وأدناهم منكم على بريد. وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدوا. فما لبثوا إلا ثلاثا حتى طرقوا المدينة غارة مع الدليل وخلفوا بعضهم بذي حسي ليكونوا لهم ردا، فوافق الغوار ليلا الأنقاب وعليها المقاتلة ودونهم أقوام يدرجون فنبهوهم، وأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنهم، وخرج في أهل المسجد على النواضح إليهم، فانفش العدو- انهزم- فأتبعهم المسلمون على إبلهم حتى

بلغوا ذي حسى، فخرج عليهم الرّد بأنحاء قد نفخوها وجعلوا فيها الحبال، ثم دهدهوها- دفعوها بأرجهلم في وجوه الإبل- فتدهده كل نحي في طوله فنفرت إبل المسلمين وهم عليها- ولا تنفر الإبل من شيء نفارها من الإنحاء- فعاجت بهم ما يملكونها، حتى دخلت بهم المدينة فلم يُصرع مسلم، ولم يُصَب.(١)

- استطاع العلامة ابن جرير الطبري أن يضع المقدمات ويرتب عليها النتائج في هذا النص، فقد اتضحت الرؤية المستقبلية «الاستراتيجية» لأبي بكر، فهو كان يرى أن ترك المرتدين بدون قتال لن يصدهم عن هدفهم الأساسي وهو القضاء على دولة الإسلام.

وفي النص السابق اتضحت دقة ترتيبهم القائم على خطة محكمة لغزو المدينة وجيش أسامة غاب عنها. والجدير بالذكر أن سيدنا أبا بكر كان يقرأ المستقبل بوضوح ويتعامل معه بدقة وسرعة بالغتين، فبعد خروج الوفد من عنده- وبرغم عدم إعلان الحرب- جمع الناس في المسجد وأخبرهم أن العدو على مسافة بريد منهم- أي مسافة قريبة - ووضع الحراسة على المدينة من كل ناحية، وأخبرهم أن يعدوا ويستعدوا... وحدث ما تنبأ به في المستقبل ونجحت خطته في الدفاع عن المدينة التي وُضِعت للمستقبل.

ويلاحظ أن سيدنا عبد الله بن مسعود كان يحرس ناحية من المدينة رغم أنه كان من الذين قالوا لا نقاتل على إبنة ليون ونقعد ونعبد ربنا حتى يأتينا اليقين، ولعله أدرك عمق النظرة المستقبلية لأبي بكر بعد أن هُوجِمت المدينة ليلا.

غير أن الصحابة كانوا يختلفون في الرأي ولكنهم يتفقون على الرؤية ولم يفعلوا كما نفعل الآن حين نقف مع وعند الموقف الفلسفي حتى نعتقده وحتى يمتزج

١) ابن جرير الطبري: تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٣- ٢٤٤ ط دار المعارف، بدون تاريخ.

بدمائنا ويصبح صبغة لفكرنا ونكابر كل من يريد أن يزجرنا عنه. ولكن ابن مسعود- رضي الله عنه- لم يمنعه رأيه من أن يبصر ويرى ويحدد طريقه في ظل رأي ورؤية أبي بكر المستقبلية المنيرة.

## رأي عمر بن الخطاب في حروب الردة:

كان لعمر بن الخطاب رأي يتعلق بقتال المرتدين وكان في رأيه هذا- رغم عدم قبول أبي بكر له- يرى أنه من دواعي تأمين المستقبل للإسلام ودولته الفتية يجب ترك قتال مانعي الزكاة حتى لا تقاتل الدولة نفسها وتقتل أبناءها وتترك العدو الخارجي وتتفرع للفتنة الداخلية.

وذهب إلى أبي بكر وقال له: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله وأن محمد رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله».

فقال أبو بكر: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه» . فقال عمر بن الخطاب: «فوالله ، ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق».[١]

ويقول الأستاذ عباس العقاد عن رأي سيدنا عمر في حروب الردة:

ومسألة الردة قد كان لها وجه آخر، غير الذي رآه أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وكان عمر خليقًا أن يرى ذلك الوجه الآخر، لأنه موافق لمجمل آرائه فى الحرب

١) انظر في ذلك تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وأبو بكر الصديق لمحمد حسين هيكل ص ٩٦.

والسياسة فقد كان بطيئًا إلى الحرب، كما عرفنا من عامة وصاياه وكان أبطأ ما يكون عنها إذا نشبت بين العرب أو المسلمين وكان جيش الإسلام بعيدا عن المدينة فى غزوة الروم التي خرج بها أسامة بن زيد بعد قيام أبي بكر بالخلافة، فالتريث إلى أن يستكمل الإسلام عدته، ويسترجع الغائبين من جنده وجه غير ضعيف - أو هو في أقل الأمر وجه لا يحسن كتمانه عن الأمير المسئول.(١)

هذا ملخص رأي الأستاذ العقاد في رأي عمر رضي الله عنه تعالى فى حروب الردة، وهي نظرة للمستقبل لها دلالتها ورجحانها، ولكن رأيى أبي بكر كان أرجح لأنه كان ينظر أيضا إلى المستقبل من زاوية أخرى، هي زاوية هيبة الدولة، وقوتها بين خصومها الظاهرين، وغير الظاهرين.

يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل عن رأي أبي بكر رضي الله تعالى عنه: تُرَى ما كان عسى أن يؤول إليه أمر المسلمين لو أن أبا بكر قبل مشورة عمر وأصحابه في شأن الذين طلبوا منع الزكاة، ووادع هؤلاء الطالبين على ذلك؟ ولا أخالني في حاجة إلى أن أدلك على الجواب فأنت تعرفه كما أعرفه، كانت قبائل كثيرة من العرب إلى ذلك الوقت ما تزال قريبة العهد بالجاهلية والوثنية، فلو أن أبا بكر رضي النزول عن فرض من فروض الدين لاتصلت المساومات، ولوجد طليحة ومسيلمة وغيرهما من المتنبئين الوسيلة للتشكيك فيما جاء به النبي ﷺ من عند ربه، ثم لوجدوا من هذه القبائل القريبة العهد بالجاهلية مصدقًّا لهم وطيعا، بل مؤمنا بهم يموت فى سبيلهم وينصرهم على دين الحق.

وأنت تستطيع أن تقدر ما كان لحزم أبي بكر ثم لانتصاره بذي القصة، من أثر حين نعلم أن المشركين من بني ذبيان وعبس وثبوا على من فيهم من المسلمين

١) عبقرية عمر للعقاد ص ٢١٩، ٢٢٠.

فقتلوهم كل قتلة، هذه الظاهرة التي دفع إليها الغضب والشعور بالذلة، والانتقام الوضيع، قد زادت انتصار المسلمين جلالا وزادت المسلمين ثباتا على دينهم فى كل قبيلة، وجعلتهم يهرعون بالزكاة يؤدونها إلى خليفة رسول الله ﷺ، لقد رأوا أبا بكر يغلب هؤلاء المرتدين بقوة إيمانه في حين كان جيشه مع أسامة على تخوم الروم، فأيقنوا أن الغلبة لدين الحق والإيمان به، وأن الانتقام الوضيع الذى لجأت إليه القبائل لن يمحوا عنها عار هزيمتها، وأنها ستدفع ثمن هذا الانتقام غاليًا.

وكيف لهم أن يرتابوا وقد حلف أبو بكر ليقتلن فى كل قبيلة من المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، وهو لا محالة فاعل متى عاد أسامة وآن لجيش المسلمين أن يأخذ هؤلاء الآثمين بذنوبهم.

هرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة إلى خليفة رسول الله إثر انتصاره بذي قصة، وكان أول الذين أقبلوا يؤدون الزكاة صفون والزبرقان من رؤساء بني تميم، وعدي بن حاتم الطائي عن قومه من بني طيء، واستقبل الناس هؤلاء السفراء عن عشائرهم في بشر أي بشر، وكان الناس يقول بعضهم لبعض إذا طلع أحدهم هذا نزير ، فيقول أبو بكر «بل هر بشير وهو حام ليس بوان» - ويجيب الناس أبا بكر يقولون: «طالما بشرت بالخير».[1]

هذه خلاصة النتاج التي ترتبت على نظرة أبي بكر المستقبلية لحروب الردة، ولا نعيب رأي عمر بن الخطاب، بل نقول إن الرأيين اجتهاد في رؤية المستقبل ترجحت منهما نظرة أبي بكر الصديق المستقبلية، فأذعن إليها عمر بن الخطاب

١) محمد حسين هيكل - الصديق أبو بكر ص ٩٩، ١٠٠ ط دار المعارف.

وساندها وانخرط جنديا شجاعا في صفوفها. وإلى هنا نكون قد تكلمنا عن أبرز علامات رؤية أبي بكر المذخورية وكيف أتت ثمارها في حينها وفي كل حين.[1]

## عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه:

جاء سيدنا عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- ليكمل الخطة التي رسمها رسول الله ﷺ وقام على تنفيذها، ثم جاء بعده سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فسار بالخطة فترةً من الزمن، ثم جاء عمر بن الخطاب ليسير على نفس المنهج، نهج التأسيس للمستقبل البعيد، ووضع أسس الدولة الإسلامية، والإمام السيوطي- رحمه الله تعالى- يجمل ما فعله سيدنا عمر في كل سنة من السنوات التي ظل فيها أميرًا للمؤمنين وحاكمًا أعلى للدولة فيقول: «ووُلي الخليفة بعهد من أبي بكر في جمادى الاخرة سنة ثلاث عشرة، فقام بالأمر أتم قيام، وكثرت الفتوح في أيامه.

ففي سنة أربع عشرة: فُتِحت دمشق ما بين صلح وعنوة، وحمص وبعلبك صلحا، والبصرة والأيكة كلاهما عنوة. وفي سنة خمس عشرة فُتِحت الأردن كلها عنوة إلا طبرية فإنها فُتِحت صلحا، وفي هذه السنة وقعة اليرموك والقادسية وفيها فرض عمر الفروض ودوَّن الدواوين وأعطى العطاء على السابقة.

وفي سنة ست عشرة فُتِحت الأهواز والمدائن وأقام بها سعد الجمعة في إيوان كسرى، وهي أول جمعة جُمِعت بالعراق وذلك في صفر، وكان فيها وقعة جلولاء وهُزم فيها يزدجرد بن كسرى وتقهقر إلى السرى، وفيها فُتِحت تكريت، وفيها

---

١) وهو في هذا يكمل خطة رسول الله ﷺ المستقبلية، فقد توجه بكل قلبه ورأيه وعزيمته إلى تنفيذ الخطة التي رسمها رسول الله ﷺ، تلك سياسته التي أعلنها يوم بويع وسار عليها إلى أن لقي ربه.

سار عمر ففتح بيت المقدس وخطب بالجابية خطبته المشهورة، وفيها فُتِحت قنسرين عنوة، وحلب وأنطاكية، ومنج صلحا، وسروج عنوة، وفيها فُتِحت قرقسيا صلحا.

وفي سنة سبع عشرة زاد عمر في المسجد النبوي وفيها كان القحط بالحجاز وفيها كان عام الرمادة، واستسقى عمر للناس بالعباس.

وفي سنة ثماني عشرة: فُتِحت جند يسابور صلحًا وحلوان عنوة، وفيها كان طاعون عمواس، وفيها فُتِحت الرها وسميساط عنوة، وحران ونصيبين، وطائفة من الجزيرة عنوة- وقيل صلحا- والموصل ونواحيها عنوة.

وفي سنة تسع عشرة: فتحت قيسارية عنوة.

وفي سنة عشرين: فُتِحت مصر عنوة، وقيل مصر كلها صلحا إلا الإسكندرية فعنوة. وقال علي بن رباح: المغرب كله عنوة.

وفيها فُتِحت تستر، وفيها هلك قيصر عظيم الروم، وفيها أجلى عمر اليهود عن خيبر وعن نجران، وقسم خيبر ووادي القرى.

وفي سنة إحدى وعشرين: فُتِحت الإسكندرية عنوة ونهاوند، ولم يكن للأعاجم بعدها جماعة، وبرقة وغيرها.

وفي سنة اثنتين وعشرين: فُتِحت أذربيجان عنوة وقيل صلحا، والدينور عنوة، وما سبذان عنوة، وهذان عنوة وطرابلس المغرب، والري، وعسكر وقومش.

وفي سنة ثلاث وعشرين: كان فتح كرمان وسجستان وكران من بلاد الجبل، وأصبهان ونواحيها. وفي آخرها كان وفاة سيدنا عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه ورحمه رحمة واسعة.[1]

في هذا العرض السريع بين لنا الإمام السيوطي كيف كان عمر بن الخطاب يوسع في دولة الإسلام لينفذ خطة رسول الله ﷺ المستقبلية، ولم تمض سنة كما رأينا، إلا وفتح فيها بلادا كثيرة في قارات متعددة.

وإذا كان الإمام السيوطي يسرد هذه الاشياء على أنها تاريخ تُؤْخذ منه العبرة، فإن الأستاذ عباس العقاد يرى أن ذلك كان تأسيسا لدولة الإسلام لضمان مستقبلها البعيد.

## رأي الأستاذ عباس محمود العقاد:

يعلق العقاد على أعمال عمر بن الخطاب المستقبلية «الاستراتجية»، فيقول:

تأسست الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر- رضي الله تعالى عنه- لأنه وطد العقيدة وسير البعوث فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب ما صنعه في حرب الرد، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث، وفتح الفتوح فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين.

إلا أننا نسمي عمر مؤسسا للدولة الإسلامية بمعنى آخر، غير معنى السبق في أعمال الخلافة لأننا «أولا» لا نجد مكانا في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظيمة.

١) الإمام السيوطي: تاريخ الخلفاء- ص ١٣١ و ١٣٣ ط مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٢م.

ولأننا من وجهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح. وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسا لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كان مؤسسا لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام، وأذانه، وأعزها بهيبته وعنفوانه.

وكان مؤسسا لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها.

وكان مؤسسا لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير، ودعامة الدعائم.

إن أبا بكر- رضي الله تعالى عنه- أسس، ولم يتسع له الأجل، حتى يفرغ من عمله. وجاء عمر بعده فأتم عمله وأقام الأساس ثم أقام عليه البناء، وكانت قدرته على التأسيس هي آية الآيات فيه وفي ذلك العصر من البداوة البادية.

وبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يُقْتَوَّن به، ويلازمه ويُعَد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد، وكلاهما عمل لا يفطن إليه إلا من طُبِع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها. وكلاهما فطن إليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة، فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع أي القرآن.

وندر في الدولة الإسلامية نظام لم تكن له أولية فيه، فافتتح تاريخا واستهل حضارة، وأنشأ حكومة، ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والإدارة، واتخذ لها بيت مال، ووصل أجزاءها بالبريد، وحمى ثغورها بالمرابطين، وصنع كل شيء في

الوقت الذي ينبغي أن يصنع فيه وملاك النظم الحكومية كلها نظام الثوري الذي أقامه عمر على أحسن ما يُقَام في زمانه.

وجعل موسم الحج موسما عاما للمراجعة والمحاسبة، واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها وقد وضع لقواده دستور الحرب، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم أعدائها، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده.[١]

في النص السابق تتضح المستقبلية عند عمر بن الخطاب وكيف أنه وضع الأساس المتين والمستمر للدولة الإسلامية حتى تسود وتقود، والحقيقة أنه كان رضي الله تعالى عنه يعي المستقبل تماما ويخطط له بحكمة وبدقة وكان لا يترك شيئا يجب أن يفعل للمستقبل إلا فعله.[٢]

ولم يتركه للظروف والأقدار، كما يفعل المسلمون الآن حين يتركون التدبير للمستقبل بحجة أن المستقبل بيد الله سبحانه وتعالى.

---

١) عباس محمود العقاد: عبقرية عمر- ص ١٢٧- ١٢٩، ط وزارة التعليم ١٩٦٩م.
٢) في هذا البحث، يتم رصد التوجه المستقبلي (الاستراتيجي) فقط، أما من أراد أن يستزيد فعليه الرجوع إلى كتب التاريخ والعزوات ليبصر الخطط في كل غزة على حدة.

# وقفة مع جمع القرآن الكريم

أردت من هذه الوقفة أن أظهر منهاج سيدنا عمر بن الخطاب الاستراتيجي في توجهه للمستقبل من غير أن يجعل من النصوص الدينية مانعا لحركته وعقلا لعقله.

لقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفظة للقرآن الكريم يسقطون في حروب الردة، وأدرك أن القرآن الكريم يجب أن يُجْمع لأنه دستور الأمة ومحور حركتها وقوام أمرها، وأنه لو تداعت الحروب وسقط الحفظة وضاع القرآن الكريم فإن الأمة ستضيع تبعا له ولن يبقى لها أثر.

ويبقى سؤال: كيف خطط عمر بن الخطاب لجمع القرآن الكريم ووافقه الخليفة أبو بكر وباقي الصحابة على ذلك؟ وهم يعلمون أن هذا مستقبل، وأن القرآن الكريم أشار الحق تعالى فيه إلى حفظه إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (سورة الحجر: ٩).

فكيف يحاولون ضمان شيء ضمنه الله تعالى؟ إن المسلم الآن يترك عمله الخاص من غير إتقان بحجة أن الأمور كلها بيد الله تعالى، فلماذا لم يفعل عمر بن الخطاب مثل هذا؟ لا شك أنهم كانوا يدركون هيمنة الله تعالى على كل شيء ولا يمنعهم ذلك الإدراك من أداء رسالتهم الإنسانية والقيام بدورهم البشري، ولذلك كانت لهم السيادة والقيادة.

ونكتفي بهذه اللمحة السريعة عن المستقبلية عند سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

## عثمان بن عفان- رضي الله تعالى عنه:

يتحدث التاريخ بكثرة المشاكل والخلافات التي حدثت في عهد سيدنا عثمان بن عفان- رضي الله تعالى عنه- ومع كثرة المشاكل، إن صحت رواية المؤرخين، فإن سيدنا عثمان ومعه الصحابه لم يتركوا العمل للمستقبل لتنفيذ خطة رسول الله ﷺ أن يعم الإسلام العالم كله، وبعمومه يعم الخير ويُكَرم الإنسان.

ويحدثنا الإمام السيوطي في كتابه الطيب تاريخ الخلفاء عن الفتوح والغزوات التي تمت في عهد سيدنا عثمان بن عفان بما يؤكد تأصيل فكرة المستقبلية عنده وعند المسلمين في عهده، فيقول عن أول سنة في خلافته الرشيدة:

وفي هذه السنة من خلافته- فُتِحت الري- وكانت فُتِحت وانتقضت، وفيها فتح من الروم حصون كثيرة، وفيها ولي عثمان الكوفة سعد بن أبي وقاص، وعزل المغيرة.

وفي سنة ست وعشرين: زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه واشترى أماكن للزيادة.(١)

وفي هذه السنة فُتِحت سابور.

وفي سنة سبع وعشرين: غزا معاوية بن أبي سفيان قبرس «قبرص» فركب البحر بالجيوش، وكان معهم عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان

١) العزوات وفتح البلاد عمل استراتيجي لا شك فيه، بحسب ما يؤول إليه الحال، أو قل إنها أهداف مرحلية، تحقق بمجموعها الهدف الاستراتيجي العام، لكن الزيادة في المسجد الحرام وشراء أراض حوله للزيادة فيه في المستقبل، تؤكد تأصل فكرة المستقبلية في الجانب المدني كما في الجانب العسكري، وتؤكد أن المستقبلية عند الصحابة رضي الله عنهم كانت نسيج الحياة.

الأنصارية فسقطت عن دابتها فماتت شهيدة هناك. وكان النبي ﷺ أخبرها بهذا الجيش ودعا لها بأن تكون منهم فدُفِنت بقبرص، وفي هذه السنة فُتِحت أرجان ودرابجرد، وفيها عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح فغزا إفريقية وافتتحها سهلا وجبلا، فأصاب كل إنسان من الجيش ألف دينار وقبل ثلاثة آلاف دينار، **ثم فُتِحت الأندلس في هذا العام.**

وفي سنة تسع وعشرين: فُتِحت اصطخر عنوة وفسادة وغير ذلك.(١)

وفيها زاد عثمان في مسجد المدينة ووسعه، وبناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة، وسقفه بالساج، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع.

وفي سنة ثلاثين: فُتِحت جور، وبلاد كثيرة من أرض خراسان وفتحت نيسابور صلحا، وقيل عنوة وطوس، وسرخس كلاهما صلحا، وكذا مرو، وبيهق، ولما فتحت هذه البلاد الواسعة كثر الخراج على عثمان.

وأتاه المال من كل وجهة حتى اتخذ له الخزائن(١) وأدر الأرزاق، وكان يأمر للرجل بألف بدرة في كل بدرة أربعة آلاف أوقية.

---

١) بهذه العبارة الموجزة- أهمل الإمام السيوطي الكثير من بطولات المسلمين وكدحهم للمستقبل، ويرى الإمام الطبري أنه بجانب فتح أصطخر، وفسادة، فإنه تم فتح فارس، وافتتحها عبدالله بن عامر- أنظر تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٧ط دار المعارف.

٢) في هذه القفرة تظهر ثمار المستقبلية، فهذه الأموال التي جاءت من كل مكان إنما جاءت نتيجة سلسلة من الغزوات التي بذل فيها الكثير من العرق والدماء والأرواح لنشر الدين الإسلامي والعدل الإسلامي والحكم الإسلامي، وكل ذلك سيؤدي بالتبعية إلى مجيئ الأموال من كل حدب وصوب لتعم السعادة بلاد الإسلام والبلاد المفتوحة على حد سواء. ولا بد من التأكيد على أن جمع المال لم يكن من أهداف الغزو ولكنه جاء تبعا له، فلا يوجد في العالم دولة فقيرة مسيطرة ولا دولة مسيطرة فقيرة.

وفي سنة ثلاث وثلاثين: غزا عبد الله بن أبي سرح الحبشة.

وفي سنة خمس وثلاثين: كان مقتل عثمان.

ويُذْكَر لسيدنا عثمان أنه أمر معاوية بن أبي سفيان فغزا قبرص، وركب البحر، لتعبر الدعوة الإسلامية البحر وتتجه نحو العالمية.

**يقول الإمام السيوطي :**

كان معاوية يلح على عمر بن الخطاب في غزوه قبرص وركوب البحر لها، فكتب إلى عمرو بن العاص، أن صف لي البحر وراكبه، فكتب إليه «إني رأيت خلقا كثيرا يركبه خلق صغير، إن ركد خرق القلوب وإن تحرك أراع العقول، تزداد في العقول قلة والسيئات كثرة، وهم فيه كدود على عدو، إن مال غرق وإن نجا فرق». فلما قرأ عمر بن الخطاب الكتاب كتب إلى معاوية: «والله لا أحمل فيه مسلما أبدا». قال ابن جرير: فغزا معاوية قبرص في أيام عثمان فصالحه أهلها على الجزية».[1]

إن صحت هذه الرواية في توقف سيدنا عمر بن الخطاب عن غزو البحر خوفا على المسلمين وإقدام سيدنا عثمان بن عفان على ذلك، تكون هذه الفقرة خير ختام للمستقبلية عند سيدنا عثمان بن عفان، لأن غزو قبرص كان مرحلة من مراحل نشر الإسلام في أوروبا انطلاقا من هذه الجزيرة وكانت خطوة مرحلية لا بد منها، وهي نظرة كبيرة إلى المستقبل البعيد. لكن يجب أن لا نعالج هذا النص بمفهوم إلمام السيوطي ومن نقل عنهم من المؤرخين، لأن المستقبلية كانت هي القاسم المشترك عند الصحابة (رضي الله تعالى عنهم) على اختلاف

١) الإمام السيوطي: تاريخ الخلفاء- ص ١٥٤ وما بعدها.

مشاربهم وتفاوت قدراتهم في القيادة. ولم يكن ليغيب عن حاضر مؤسس الدولة الاسلامية عمر بن الخطاب على أساس الرسول ﷺ وأبي بكر، وأن غزو قبرص فيه نقل لنور الدعوة الإسلامية من مرحلتها المحلية إلى مرحلتها العالمية. لكن عمر، لم يخف من ركوب البحر كما تقول كتب التاريخ، وإنما كانت لديه أولويات وأهداف مرحلية تسبق هذا الهدف العظيم ولا بد أن يترتب عليها.

ولما جاء سيدنا عثمان بن عفان نظر إلى رقعة الدولة الإسلامية على خريطة الواقع فوجدها ما زالت دون ما يراه لها في المستقبل فقرر غزو قبرص والانطلاق منها لما بعدها.

وعلى هذا لا يكون هناك خلاف في الرؤية المستقبلية بين سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا عمر بن الخطاب ويكون لكل منهما التي تكمل المستقبلية عند الآخر، لأنهم كانوا ينظرون إلى دورهم في دفع عجلة الإسلام والتأسيس لدولته على أن كل دور من هذه الأدوار دائرة تدور وتتلاشى ليتكون من هذه الدوائر المتلاشية والباقية في آن واحد دائرة الإسلام الكبرى والأبقى.

ولو سلمنا مع الطبري بوجود خلاف في الرؤية بين سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عثمان بن عفان فإنه لا يعدو أن يكون خلافا على أولويات كل مرحلة وليس على أهداف المستقبلية.

والنظر للتاريخ الإسلامي من هذه النافذة يجعله نسقا واحدًا يسير حسب مراد الله- سبحانه وتعالى- لهذه الأمة المُخْرَجة للناس.

## علي بن أبي طالب- رضي الله تعالى عنه:

تولى سيدنا علي بن أبي طالب الخلافة والفتن تحيط بالدولة الإسلامية من كل جانب، ولعل معظمها كان من صناعة بعض الحاقدين على دولة الإسلام، والمنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وفي فترة خلافته وما تلاها من سنين أو بالتحديد من سنة خمس وثلاثين إلى السنة التي تولى فيها معاوية الخلافة أو انفرد بها، وليس معنى هذا أن الغزو توقف وأن العمل للمستقبل توقف، ولكن المؤرخ- خاصة العربي- يميل إلى ذكر الأحاديث التي تُغَلف بالقصص وتكون مادة لتسلية من يقرأ تاريخه، ومع هذا فلن نعدم أن نجد في حياة سيدنا الإمام علي ما يؤكد احتفاءه بالمستقبلية.

كانت أول مشكلة عُرضت على سيدنا علي بن أبي طالب بعد توليه الخلافة هي القصاص من قتلة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وكان تصرفه فيها ينم عن رؤيته المستقبلية الواضحة.

### يقول ابن جرير الطبري:

واجتمع إلى عليّ بعد ما دخل إلى بيته طلحة والزبير في عدة من الصحابة فقالوا: يا عليّ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم، فقال هم: يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعا للقدرة على شيء مما تريدون؟

قالوا: لا... قال: فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله، إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط، فيبرح الأرض من أخذ بها أبدا إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور، فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتُؤْخَذ الحقوق فاهدؤوا عني، وانظروا إلى ما يأتيكم وعودوا.[1]

إن من يريد أن يقف على المستقبلية في هذا النص فعليه أن يرجع إلى الظروف والملابسات ويدرس الأحوال التي قيل فيها هذا النص، لقد قُتِل عثمان بن عفان فيما يشبه الثورة، اجتمع للقادمين من الأمصار، الأعراب والعبيد الأعراب من حول المدينة والعبيد من داخل المدينة وأحكموا السيطرة على المدينة، وقتلوا الخليفة، وأصبح كبار الصحابة لا يملكون من أمرهم شيئا، فعبيدهم جيش معاون للقادمين الثائرين، والأعراب وهم مدد المدينة قد انضموا إلى الثوار، ومع ذلك جاءوا إلى سيدنا علي يطالبونه بالقصاص، فحدثهم حديث من ليس يقرأ المستقبل فحسب بل حديث الخبير به أيضا. فقال لهم: كيف أفرض القصاص عليهم وهم يملكوننا ولا نملكهم؟ وهذه قاعدة صحيحة أن من يحكم لا بد أن يملك. وفي نفس الوقت أخبرهم أن الرأي العام في المدينة لم يتفق بعد على شيء محدد. إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا.

فهذه رؤية نافذة إلى المستقبل، ترتب أحداثه ترتيبا طبيعيا. ولو أُتِيح لسيدنا علي بن أبي طالب نظاما مستقر في خلافته، لأسدى لدولة الإسلام أكبر الانجازات في مستقبلها من خلال وعيه المستقبلي السديد، ولكنه حاول أن يسبح بمركبه في بحر من الفتن فلم يصل إلى شاطئه الذي كان يراه من بعيد.

١) ابن جرير الطبري: تاريخ الطبري- ٤/ ٤٣٧.

وإذا كانت هذه الفتن قد ألهت المسلمين عن الغزو أو ألهت كتاب التاريخ عن تسجيل ذلك، فإننا نلحظ رؤية مستقبلية أخرى للإمام علي بن أبي طالب في نظرته للضرائب التي تُجْبَي من الناس، فقد نظر إليها نظرة مستقبلية فرأى أنها يجب أن تُؤَدِّي إلى عمارة الأرض لا إلى خرابها فكان يكتب إلى الوالي من عماله:

تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره الا قليلا وإنما يُؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها إسراف الولاة في الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر.[١]

في الفقرة السابقة رؤية مستقبلية في الاقتصاد لأنه رضي الله تعالى عنه ينظر إلى عمارة الأرض التي سيترتب عليها تدفق الخراج، ولا ينظر إلى كمية الخراج نفسها ويقول:

«وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج».

وهذا ما يُسَمى في عصرنا الحاضر بالاستثمار للمستقبل. وفي كلماته القليلة لعماله أساس للتخطيط المستقبلي في حقل الاقتصاد وعمارة الأرض، ويلحظ هذا التخطيط كل باحث عن المستقبلية من غير عناء ولا مشقة.

١) عبقرية علي: عباس محمود العقاد. ص ٢٢، وانظر أيضا نهج البلاغة.

## معاوية بن أبي سفيان- رضي الله تعالى عنه:

وعلى درب الصحابة الكرام يسير سيدنا معاوية بن أبي سفيان في فتح البلاد وإفساح رقعة الدولة الإسلامية ومد سلطانها في كل الاتجاهات، وبقي عشرين سنة لا ينازعه أحد. فقد وُلِّي الخلافة بعد أن تنازل له الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما [1] في سنة إحدى وأربعين، وظل يغزو ويفتح طوال هذه المدة.

ففي سنة ثلاث وأربعين، فُتِحت الخرج وغيرها من بلاد سجستان وودان من برقة، وكور من بلاد السودان.

وفي سنة خمس وأربعين: فُتِحت القيقان.

وفي سنة خمسين: فُتِحت قوهسان عنوة، وفيها دعا معاوية أهل الشام إلى البيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد.[2]

وعلى هذه السنة سار الخلفاء من بعد معاوية، لأن بناء المستقبل وتأمين الحاضر للمسلمين كان من أهم أدوار الحكام المسلمين في عصور التفوق الإسلامي. ولكن من يطالع التاريخ الإسلامي يجده يركز على الخلافات التي نشبت بين من يريدون الحكم أو الاستيلاء على السلطة، ويجب ألا يُنْظر إلى التاريخ الإسلامي على أن ما فيه مسلمات، لأن كُتَّاب التاريخ كانوا ينتمون إلى كل التيارات المتصارعة وحاولت كل طائفة منهم تشويه تاريخ الطائفة الأخرى وإلصاق العجز بها، لكن من يراجع تقدم الدولة الإسلامية في كل المجالات من منظور المذخورية ويتفحص الحضارة الإسلامية يعلم أن هذه الخلافات كانت محدودة وأن بناء

١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ.

٢) الإمام السيوطي: تاريخ الخلفاء- ص ٢٠٠.

الدولة الإسلامية لم يتوقف إلا قليلا، ويجب أن يُدْرس التاريخ الإسلامي من خلال الإفراز الحضاري للدولة الإسلامية لأن كثيرا من الأخطاء في التاريخ تأخذ مصداقيتها من أقدميتها أو من زمانيتها، تُرى في صفحات التاريخ أحكاما مرتجلة يتلقفها فم من فم ويتوارثها جيل عن جيل، ويتخذها السامعون قضية مسلمة مفروغا من بحثها والاستدلال عليها وهي في الواقع لم تُعْرض قط على البحث والاستدلال ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال ثم صقلتها الألسنة فعز عليها بعد صقلها أن تردها إلى الهجر والإهمال.(١)

ولو اتسع المجال لسردنا هنا كيف أسس الأوائل دولة الإسلام على قاعدة التخطيط الدقيق والأعمال الهادفة، ولكن هذه الدراسة تركز على إثبات المستقبلية عند المسلمين ولا نركز على استقصائها،- فحسب المرء أن يخرج من مراجعة هذه الدراسة وهو يعتقد بأن التخطيط والنظر للمستقبل البعيد جزء من عقيدة المسلمين في خلافتهم لله تعالى في الأرض، وليس في هذا التخطيط نقص في الإيمان، أو وهن في العقيدة.

١) الأستاذ عباس محمود العقاد: عبقرية عليّ- ص ٩٠، ط دار المعارف.

# المحتويات


مقدمة الطبعة الثانية ........ ٧

**تمهيد** ........ ٩

الفصل الأول:

**الفكر المستقبلي في القرآن الكريم** ........ ٢٥

الفصل الثانى:

**الفكر المستقبلي في السنة الشريفة** ........ ٧٥

الفصل الثالث:

**الفكر المستقبلي عند صحابة رسول الله ﷺ** ........ ١٠٧